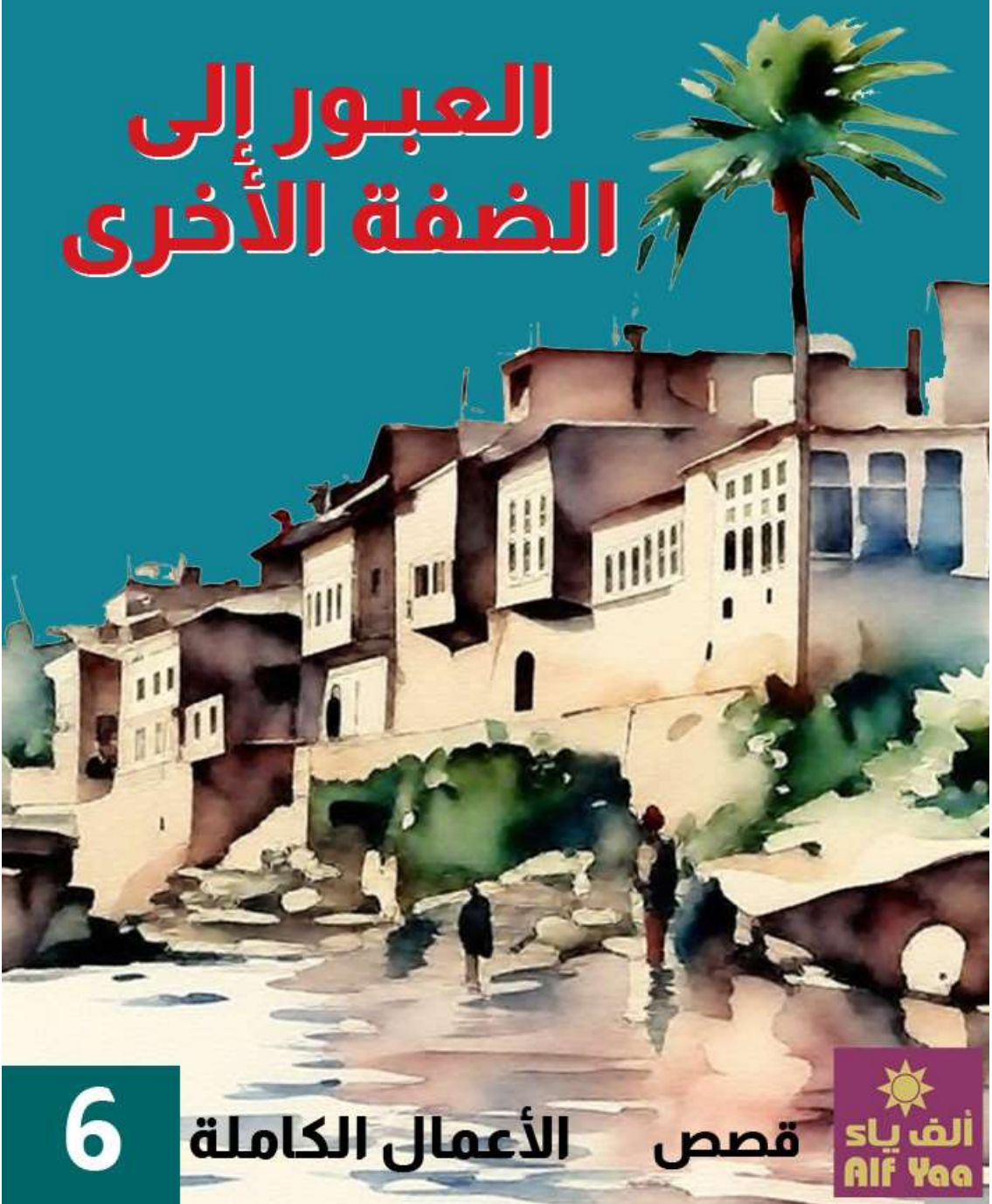


# لؤي عبد الإله

## العبور إلى الضفة الأخرى



6

قصص الأعمال الكاملة

ألف يا  
Alf Ya

## العبور إلى الضفة الأخرى

**المؤلف: لؤي عبد الإله**

**الكتاب: العبور إلى الضفة الأخرى (قصص) - الأعمال الكاملة 7**

صدرت النسخة الرقمية: حزيران/ يونيو 2025

الطبعة الأولى: دار الجندي، دمشق - سوريا 1992

- الناشر: "ألف ياء AlfYaa"
- الموقع الإلكتروني: [www.alfyaa.net](http://www.alfyaa.net)
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ "ألف ياء AlfYaa"
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- "ألف ياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

الأعمال الكاملة 3

لؤي عبدالاله

العبور إلى الضفة الأخرى

قصص



# الفهرست

|     |                               |
|-----|-------------------------------|
| 7   | القسم الأول .....             |
| 9   | العبور إلى الضفة الأخرى ..... |
| 19  | النبوءة .....                 |
| 41  | ضحكات آخر الليل .....         |
| 49  | مملكة النمل .....             |
| 67  | القداح .....                  |
| 81  | النرد .....                   |
| 91  | القسم الثاني .....            |
| 93  | طيور السنونو .....            |
| 113 | المنفيون .....                |
| 125 | حالمون من ذاك الزمان .....    |
| 145 | حانة القنطور الذهبي .....     |



# القسم الأول



العبور إلى الضفة الأخرى



كان صوتها جرساً ناعماً، متهدجا بفرح طفولي، حينما وشوشت في أذنه: " أقعد عيني مصطفى، راح نطلع..."، وعلى كتفه استقرت يدها اللدنة، تهزه قليلاً قليلاً.

حضر العيد أخيراً، بعد انتظار طويل له، قادما من بلاد نائية، وقد وعدته جدته بأخذه معها لزيارة أبيه، الذي فارقهم منذ أن كان عمره عاماً واحداً. إنه يحفظ اليوم ملامح وجهه بدقة، لكثرة ما أمعن النظر في الصورة التي ما برحت خالته تربيها له خفية، من وقت إلى آخر، لأبيه وأمه، وهما جالسان على كنبه وثيرة. تُرى هل تخلى أبوه عن نظارتيه الدائريتين اللتين تجعلانه ينفجر بالضحك كلما ألقى نظرة على الصورة؟

ما زال الظلام كثيفاً في الليوان، حيث ينام أخواله الثلاثة على سجادة الكوشان العتيقة. تراءى لمصطفى رأس إحدى الأفاعي بين حصران السقف السوداء، مندلقاً من ثقب وسطه. سمع كركراتها. "خالة الحية تُعرف العيد إجه؟" لكن سعيدة لم تسمع سؤاله. كانت منشغلة في لمّ فراشه ووضعها داخل خزانة الملابس الكبيرة، متجنباً أحداث أي ضجيج قد يوقظ أحد أخوتها فيندفع في زجرها، وهي لا تريد إفساد فرحتها بحلول عيد الأضحى منذ بدايته.

قال مصطفى: "خالة أني بردان". فهمست خالته: "إش لا نصيخ هسة تدفا". وفي الحوش جثمت شجرة السدر دون حراك، كتلة سوداء، أكثر عتمة مما حولها، تمد أذرعاً خمسة إلى السماء. بدت الشجرة له أكبر بكثير مما كانت عليه

بالأمس، فدفعت تلك الفكرة الخوف في دمائه. همس بصوت مرتعش: "خالة العصافير بعْدها نايمة".

كانت جدته جالسة في المطبخ، على حصير من الخيزران، تمشط شعرها الطويل بتأن. ارتدت ثوبا نيلياً غامقاً، وكان من النادر أن يراها دون فوطة، أو بملابس لونها مغاير للسواد. شدته رائحة المستكي المنبعثة من اللبان الذي تعلقه، ورائحة شعرها الزكية. اندفع صوبها بلهفة، فجلس في حضنها. قال لها وهو يفرك في عينيه:

- بببي<sup>(1)</sup>، شعرك صاير كَلَّة أبيض.
- إنت من تكبر، شعرك يصير مثله.
- بببي، آني هسه<sup>(2)</sup> أريده يصير أبيض.
- ما يصير.
- أيش؟

ضحكت جدته، حتى اغرورقت عيناها بالدمع، فضمته إلى صدرها. تمنى أن يطول جلوسه في حضنها الوثير. يمنحه حضورها الطمأنينة. يرهبها الكل في البيت، لكنه هو الوحيد الذي ترقّ معه، بل هي تخشاه كثيراً، وتخشى زعله عليها. التصق بها منذ زواج أمه. إنه اليوم لا يرغب بالبقاء طويلاً في قصر أمه والعم خليل، برغم ما يبذلانه من جهود كبيرة للاحتفاظ به: غرفة جميلة له، تحتوي على لعب كثيرة، وشقيقته متعلقة به. لكن لا شيء يشعره بالحرية والدفء سوى بيت

---

(1) جدتي  
(2) الآن أو قريباً بالعراقية

جدته، برفقة خالته وأخواله. قال مصطفى، وهو يمرر أصابعه على وجه جدته:

- بببي، وجهك مَلِيان حَقْر.

- إنت مِن تَكْبُرْ يصير وجهك مِثْلَه.

- بببي، آني ما راح أَكْبُرْ.

انتشر ضوء، المصباح الضعيف، العاري، دون تناسق، على أرضية المطبخ المرصوفة بمربعات الطابوق الأصفر، وعلى جدرانه المطلية بالجبس الأبيض، المتشقق. إعتاد مصطفى أن يرسم عليها أي شيء يراه في الخارج أو في البيت: باص النقل العمومي، عربات الربل، أفراد عائلته، نخلة الجيران، شمس العصاري. وأحياناً، يقضي ساعات متابعاً خطوط النمل، المتنقل من مكان إلى آخر فوقها، يساعد أياً منها في العودة إلى أسرتها، إذا صادف وإن أضلّت طريقها، أو أعيقت لحاجز ما. كان يشعر بتعاطف شديد مع النمل الأحمر الناعم، ومقت للنمل الفارسي الكبير. قالت جدته بحزم: "لازم هسّه نطْلَع..." حينما صفقوا وراءهم الباب الخشبي السميك، استقبلهم الزقاق بظلمته، ينبعث من نهايته ضوء خافت، يكفيهم لتجنب بقع الطين المتكدسة فوق الإسفلت المتشقق.

"إحنا وَيْنْ رايحين بببي؟" سأل مصطفى، حينما وجد جدته وخالته، تقطعان الشارع الرئيسي، منحدرتين صوب النهر. لاحت عند حافته قوارب صغيرة مشدودة إلى أعمدة خشبية منغرزة على الشاطئ. كان من الصعب رؤية وجه البلام<sup>(1)</sup>

(1) البلام: قلند نوع من الزوارق الخشبية يسمى البلم

الذي توقفت جدته أمامه، عدا دشاشته البيضاء، حيث بدت طبقة اخفّ عتمة من عباءتي مرافقتيه السوداوين، يسمع صوته النحاسي، المتحشرج بسعلات، تتداخل من وقت إلى آخر مع أصوات البلامة القلائل. "حجّية أوصِّلْكُم بقران<sup>(1)</sup>..." وحينما احتجّت جدته بحدة على الأجر، قال البلام بنبرة دمثة، متحايلة: "اليوم عيد، حجّية، والصلاة على نبيّنا مُحَمَّدٌ".

حلّ البلام الحبل، ثم دفع الجرف بأحد مجذافيه، ومضى يشقّ بالذراعين الخشبيين سطح النهر، تاركين وراء كل شرخ طرطرشة رتيبة، وسط الصمت الذي لكلل فوقهم. كانت جدته تجلس في المؤخرة، ويجلس هو مع خالته في الوسط، وأمامهما البلام وجهاً لوجه. تخيل أباه ساكناً في قصر بللوري، لونه كلون السماء عند الفجر، تسبح داخله نجوم شبيهة بنجمة الصباح الشذرية المعلقة فوقهم. "بيبي، بَعْدَه بابا يلبس سدارة؟"

كركرت جدته، ثم وضعت يدها فوق فمها لإيقاف سعة انفجرت في صدرها، مشبعة بدخان التبغ. قالت جدته: "ضحكة خير".

كانت أضواء "الجسر العتيق" الشاحبة تنزلق فوق سطح النهر، مكونة عليه شررا مترجرجاً، يمتد خطوطاً ملتوية، حسبها مصطفى أفاعي سحرية من ذهب، تزحف نحو الأعماق. وقبل هبوطهم من الزورق على جرف الضفة الأخرى، انفجر طلق حاد، متعاقب، في السماء: نداءات لهفى لطائر التطوة، جعلت الدم يتدفق عنيفا في عروقه. تراءى له طائر عملاق، أبيض، بمنقار طويل، يحمل على منته أطفالاً

(1) قران: عملة عثمانية قديمة تساوي عشرين فلسا عراقيا

ضائعين، متنقلاً بهم من مدينة إلى أخرى. قالت جدته: "بشارة خير..."

صعدوا سلماً حجرياً يقود من الجرف، حتى الشارع المطل على النهر. مضوا في طرقات ضيقة، وسط أزقة مظلمة. وصلوا إلى شارع عريض، تنتصفه شتلات الدفلى وأعمدة الكهرباء. وبرغم الظلمة، كانت جدّة مصطفى تحفظ الطريق بكل تفاصيله لكثرة مرورها به. وكان الصمت وأنفاسها الثقيلة برفقتهم. ظل مصطفى يتابع، مندهشاً، هذا العالم الجديد، الذي لم تمسه عيناه من قبل. إنها رحلته الأولى عبر النهر. احس كأنما هم قد انتقلوا من كوكب إلى آخر، بعيد كل البعد عن بيتهم، وإن الزمن الذي استغرقهم للوصول إلى هذا المكان جد طويل. إنه العالم الذي تقع فيه أحداث الحكايات التي ترويها له جدته كل مساء، عن الجن والعفاريت والسعالي. وحينما شاهد بناية حكومية بثلاث طوابق، معلقة فوقها عدة أعلام، ومضاءة بمئات المصابيح الملونة، ظن أن العيد يسكن في داخلها، يرفل بملابس من حرير، ويضع على رأسه تاجاً مرصعاً بالماس واللؤلؤ، بوجه منير، ولحية بيضاء كالقطن.

لاح له جدار طويل، تطلّ من ورائه أشجار النخيل والسدر، يتناثر على رؤوسها شرر ضئيل من ضياء مصابيح الشارع. توقفوا عند بوابتين حديديتين، مشبكتين، لونهما أخضر. ظن مصطفى أنهم قد وصلوا إلى قلعة أبيه الساحرة. ستقابلهم حدائق غناء، بحيرات فضية، بيغوات زاهية اللون، تتقاذف على أشجار ملأى بشتى الفواكه... لكن بدلاً عن ذلك، التفت عيناه بفضاء، مقفر، موحش، تباعدت دون انتظام على أرضه

أشجار النخل العجفاء، توهجت حوله شموع، جنب دگات  
إسمنتية وترابية، متناثرة في كل مكان. جاءت أصوات العويل  
والنواح من كل صوب، لكان هنالك كورساً يشارك في ترديد  
أغنية، رتيبة، أزلية. أثارت انتباهه تلك الحجرات الصغيرة  
المقنّبة، يشعّ من جوفها بريق الشموع، محاطة بنساء متلفعات  
بملابس سوداء.

كان النشيج متواصلاً حولهم، وهم يمشون في درب ترابي  
ضيق، يتلوى بين كتبان التراب ونباتات الحلفاء والشوك  
والعاقول، تنفخ في الهواء رائحة البخور وماء الورد، تصلهم  
أصوات تلاوة القرآن من كل جانب، متداخلة ببعضها. شدّت  
جدته على معصمه، وبرغم العتمة، كان بإمكانه رؤية العبوس  
الذي تراكم على عينيها المضببتين، وتعمق التجاعيد على  
جبهتها ووجنتيها، وفوقهم ظلت قبة السماء محتفظة بصفاء  
زرقتها المعتمة، مستعرة بالزهرة، وبأنجم قليلة، متفرقة عليها.  
كانت الأرض ترتفع بهم تدريجياً، وكلما رموا خطوة، تزايدت  
خشخشة أنفاس جدته حدة. بلغوا أعلى الربوة. جلست جدته  
على الأرض. تنفست الصعداء بعمق مراراً، ثم راحوا يهبطون  
صوب الجانب الآخر بخطى عجل.

توقفت مرافقته جنب نخلة تنتصب قريبها دگتان، إحداها  
واطئة يسهل الجلوس عليها. أشعلت جدته عدة شموع، وضعتها  
فوق المصطبتين، ثم أشعلت بخوراً. في الوقت نفسه، مضت  
تتمتم بعبارات غامضة. بركت على ركبتيهما أمام المصطبة  
العالية، لمست سطحها بكلا باطني كفيها لمساً رقيقاً، ثم بدأت  
في التحدث عالياً مع شخص وهمي. اعتذرت عن انقطاع  
زياراتها الأسبوعية له، بسبب مرضها الأخير، طمأنته من

تحسن صحتها. أخبرته عن حال أبنائهما فرداً فرداً، بشرته بنجاح ابنهما البكر في دراسته الجامعية، أكدت له بأنهم جميعاً يفتقدونه، يتذكرونه كل يوم، وكل خميس يشعلون له بخوراً في البيت. انقطع صوتها بنشيج بكائها، فراحت تنوح، مرددة كلمات بايقاع موسيقي حزين، رتيب، تشاركها سعادة البكاء والنحيب.

فجأة، ظهر شبح بملابس بيضاء، يخفق حذؤه فوق التراب الكثيف، يحمل بيده فانوساً وبالأخرى كتاباً، وحينما أصبح قريباً منهم، اتضحت ملامح شاب لم يزل شارباه غصين.

– خالة أقرأ لكم؟

– لَع ما نريد.

– خالة، الفجر بعد شَوِيَّة راح يطُر.

لكنها لم تبال بما قاله. اعتادت أن تستقبل كل عام سلمان الضرير، الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب، والذي يكسب عيشه من تلاوة سوره في الفواتح والموايد، لا كهؤلاء المراهقين الذين يتلون القرآن دون وضوء، ويبتلعون سطوراً كثيرة من سورة يس، ليكسبوا نقوداً أكثر، ثم يصرفونها على المنكر في أيام العيد. ستنتفحه هذا العيد عشرين، وعشرة فلوس زيادة، عيدية لأبنائه. وحينما حضر سلمان برفقة ابنه البكر، تراءى لمصطفى أنه يبتسم له.

التفتت جدته إليه بعد انتهاء المقرئ من تلاوة سورة يس وذهابه إلى غيرهم:

– شِفِتْ بابا؟

– وَيْنَه ببيي؟

– إنت هسّه قاعدٌ على صدره...–

انزاحت عتمة الليل شيئاً فشيئاً. بدأت من أسفل الأفق، صاعدة إلى كبد السماء، فتحول لون السماء إلى لازوردي عميق. اختفت كل النجوم، عدا نجمة الصباح التي أوشكت على الانطفاء. كان ممكناً منذ ذلك الوقت مشاهدة أناس كثيرين حوله، متجمعين حلقات صغيرة هنا وهناك يتبادلون التهاني، يضحكون بصخب. وقد حضر إليهم بعض أقاربه وجيرانهم، فتحلقوا حولهم مهنئاً بعضهم الآخر. أعطته جدته قطعة حلوى، وأشعلت سيجارة لها.

كان اللون الأرجواني قد شقّ طريقه في أقصى الشرق، فاتحاً الطريق لصعود قرص الشمس البرتقالي. قالت جدته لسعدية: "لازم هسّه نرجع..." قال مصطفى: "وبابا؟" فاحتضنته جدته: "بابا رجع لبيتة بالسما".

وفي الطريق إلى البيت، انهمكت سعدية وأمها في حديث متواصل عما ستقومان به ذلك اليوم، يطفح على وجهيهما البشر والاسترخاء، وهما تتابعان مظاهر العيد: الأطفال بملابسهم الجديدة في كل مكان، أقواس الزينة في الشوارع، ضربات الدّمّام ورنين الصنج أمام البيوت، الأشرطة الملونة والبالونات على واجهات المقاهي والمحلات... لكن مصطفى ظل صامتاً، واجماً، طيلة الوقت. راوده آنذاك شك عميق بأنّ العيد قد حضر حقاً.

لندن 1988

## النبوءة



كعادته كل يوم، أغفى جابر خلف ماكنته. ظهر له رجل كالح بعمامة بيضاء وشاربين يرتفع طرفاهما إلى أعلى. قال له، وهو يمرر راحة يده اليمنى على لحيته كثة السوداء: "ألن تأتي معي؟ جلبت لك عطورا عجيبة، وبهاراً، وأعشاباً سحرية..." أراد أن يصرخ به: "اتركني وشأني". لكن عيني زائره ظلتا تترصدانه، ومضى يحدثه دون كلمات، بفحيح يتردد إيقاعه في زوايا الحجرة. استيقظ فزعاً. لاحت له غمامة صفراء تتوثب فيها دوائر برّاقة ملونة، ثم تلاشت تدريجياً، لتخلف وراءها مصباحاً متدلياً من سقف الدكان المقابل له، حيث بدا العطار "أبو علي" تحت نثار الضوء ظلاً متألقاً بكوفيته وجلبابه الأبيض.

تطلع إلى الستر الثلاث المعلقة بالجدار. تذكر كم كان مغطى بالبدلات المتعددة الألوان. يأتي زبائنه من بعيد، تجار وملاكون وموظفون كبار، يضج دكانه الصغير بهم، كل يوم. كم نشأت صداقات بينهم، تزوج بعضهم من عائلات البعض الآخر، تشارك آخرون في مشاريع تجارية جديدة. لكنهم انفضوا عنه منذ حلول ازمتة القلبية الأولى، وانقطاعه عن العمل عدة أشهر، فراح يستقبل أناساً جدداً، بعضهم من الشباب الذي يفرض شروطه في خياطة ملابسه، ويساومه على السعر حتى نصفه. ذهب ذلك الزمان دون رجعة حين كان يحدد لزبائنه الملابس التي تناسبهم، فلم تأت شهرته التي بلغت حتى البصرة إلا من قدرته على النفاذ إلى الصورة المثلى التي سيكتسبها

زبونه بعد ارتداء بدلته. إنه اليوم أكثر مهارة في عمله من قبل، بإمكانه أن يدرز بدلة لرجل دون أن يأخذ قياساته بعد إلقاء نظرة واحدة عليه.

مرر أصابعه على قطع القماش المنثورة فوق الطاولة المجاورة إليه، رتبها واحدة جنب الأخرى، سحب من صندوق موضوع تحت الطاولة قطعة أخرى. شرع في قصها. ارتفع صوت مبجوح من الخارج: "بَعْدُ بُكْرَةَ السَّحَبِ. جرب حظك. الجائزة الأولى..." خفق قلبه وهو يلتقط العشرة آلاف دينار. توقف عن عمله، وراح يتابع بائع اليناصيب، حاملاً بين يديه لوحة خشبية معلقة فوقها الأوراق، مرّ قدّامه، ملقياً نظرة استفسار، ثم مضى في طريقه.

رجع إلى ماكنته، لكن الصوت ظل يبعث صداه: "عشرة آلاف دينار..." كم ادّخر بعد أربعين عاماً من العمل في دكانه هذا؟ اليوم، وبعد المرض الطويل، والانقطاع عن العمل من وقت إلى آخر، يجد نفسه قريباً من الإفلاس... ابتداءً "أبو علي" حياته بائعاً متجولاً بعربة يد وضيعة، واليوم، بإمكانه شراء بستان، رغم ثيابه الرثة، وتمسكته، وشكواه الدؤوب، أقرضه عشر روّيات، فاكترى الدكان المقابل له، واشترى العنبة والبهار، بمساعدة صديقه رافي، الذي جاء مع من جاؤوا من الهنود، بعد دخول الجيش البريطاني البصرة في زمن الحرب الأولى.

رافي الرجل الغريب، الأعزب، المولع بالسحر وقراءة المستقبل. عيناه مصباحان تخترقان العتمة. تعرّف عليه عند أحد أصدقائه. تسمّر آنذاك إزاءه لحظات: "ستغلق دكانك إلى

الأبد عندما تبلغ السبعين..." علّمه التنويم المغناطيسي وقراءة الكف. كشف له أسرار الروح المخفية عن الأبصار، كيف يستطيع الرجال المشي فوق الجمر، كيف يغرزون سفايفد مدببة في أجسادهم. فسّر له كيف تحدد الأبراج مصائر الخلق، ويحدد شكل الأصابع قدراتهم... لكن رافي غرق في سفينة شراعية عائدة إلى "بومبي" بعد هبوب عاصفة عنيفة قلبتها وسط اليمّ، فتركه في منتصف الطريق وحيدا.

ظهرت لجابر سيارة مارسيدس بيضاء، يقودها رجل أنيق، ويجلس هو في المؤخرة. تلتقي عيناه بالعمارات المترصّفة على جانبي الشارع العريض في مدينة غريبة عنه. تتوقف السيارة فجأة، يلتفت إليه سائقها، يقابله وجه يشبه وجه رافي، يتفكك رأسه إلى ثلاث كتل معتمة، يصله منها اللغظ: كان هنالك ثلاثة أطفال قبالاته مندهشين لحاله، يتبادلون الهمس والضحكات. حدّجهم بتلك النظرة التي اعتاد أن يُفزع بها الصغار، ففرّوا منه. قلب الحلم بحثا عن مغزاه: ترمز المارسيدس للغنى والرفاه. ما الذي دعا رافي للظهور معه؟ المدينة التي رآها تنبض حياة، لم تكن مقبرة أو بحراً أو صحراء قاحلة... كم مضى عليه وهو قابع في حفرة هذه؟ مرض القلب له علاج كسائر الأمراض، إذ يمكن توسيع صمام قلبه لتعود إليه صحته، لكن عملية كهذه يلزم إجراؤها في الخارج، وتحتاج إلى ثروة... إنه لم يزل محتفظا بحيويته، أسنانه سليمة، وبصره حاد. لم يضع سيجارة في فمه قط. شرب الخمر قليلا في شبابه، ونام أربع مرات مع المومسات، فأصابه السيلا، كان المرض تحذيراً له ليبعد عن المرأة... سمع صوت رافي قادما من بعيد: "ستغلق دكانك إلى الأبد..."

مختلطاً بصوت بائع اليانصيب: "الجائزة الثانية: خمسة آلاف،  
الثالثة...".

خادمه العجوز عرضت عليه مراراً نساء يَتَّقْنَ للزواج به،  
لكنه أغلق أذنيه لها، لم تأتِه الإشارة، حلما أو حادثة، تدفعه  
لاتخاذ قرار. أخرجه المرض الذي حل به من عزلته، عندما  
انفجر وخز قوي في صدره كانغراز نصل بين أضلاعه،  
دارت الحجرة به دون توقف. أراد أن يمسك بماكنته، لكن  
أصابعه تحولت إلى خشب يابس. سقط على الأرض وعيناه  
مغرورتان بدمع، تتقاذف عليه كريّات الضوء البنفسجية، تأتيه  
أصوات متداخلة مع بعضها، وتمسكه أذرع قوية، لتحمله بعيداً  
عن دكانه إلى المستشفى. كان الألم يحزّه، وهو يجد نفسه سهلاً  
طيّعاً بين أيدي الآخرين... تهدم بضربة واحدة استقلاله عن  
الآخرين. كَفَّت الخادم عن عرض الزواج عليه، ومنعه كبرياؤه  
من طلب مساعدتها، فمضت الأعوام سراعاً، وحلّ به المرض  
ثانية، وثالثة...

رفع رأسه، التقى ببائع اليانصيب شاخصاً أمامه، راسماً  
على شفتيه ابتسامة ذليلة. كان جسمه صغيراً ونحياً لا يناسب  
شيخوخته. ظهرت في فمه ثلاث أسنان صفراء معوجة، وتجمّع  
الزبد الأبيض على طرفي شفتيه، بعينين تسوّرهما أهلة حمراء:  
"ما تشتري، عمي، مني بطاقة؟" تطلع جابر إليه قليلاً، ثم عاد  
يبرز الإبرة في قطعة القماش، كأن لم يسمع شيئاً. اعتاد على  
الصمت حين يُقدّم له عرض، يتجاهل سائله، يتظاهر في  
الانشغال بشيء آخر، يقلّب أفكاره يميناً وشمالاً، يسعى إلى  
سماع صوت من داخله يدعوه للرفض أو القبول.

- لَيْشَ جِيْتُ عَلِيّ؟

- هَجَسْتُ إِنَّتَ رَاخ تَرْبِيحْ.

انقلب جابر إلى عمله، أراد أن يطرد البائع، لكنه وجد كلماته تنقلب إلى موافقة بالشراء. "بُكَرَةُ تعال...". تخيّل نفسه بائعاً لأوراق اليانصيب، يتجول في السوق ذهاباً وإياباً، متوسلاً بالباعة والعاشرين لشراء بطاقاته. سينهكه المرض يوماً، فتعجز يداه عن العمل، ثم يصيبه الإفلاس فلا يجد سوى التسول أو... همس وهو يتطلّع إلى المصباح المعلق فوق رأسه: "عليّ أن انتظر المعجزة".

## 2

رجع جابر إلى داره المحاذية لدكانه، بعد تناوله العشاء في مطعم صغير قريب من السوق. كان الطريق مقفراً إلا من كلاب سائبة، تتحلق جماعات، ألقت بعضها نظرة لا مبالية إليه. فتح باب بيته. استقبله رواق قصير معتم. اشعل المصباح الصغير فبانّت أرضيته المرصوفة بطابوق أصفر مهشّم، متشقق، تدبّ فوقه زيزان حمراء. دخل حجرته الصغيرة، حيث واجهه السرير المجاور للجدار، تعلوه كومة من الأغطية والشراشف. انتشرت على الأرض قصاصات ورق وقماش، سخّبات ممزقة، وبكرات فارغة. تُبِتت على الجدار المجاور للسرير أربعة رفوف ملأى بالكتب القديمة، المائلة إلى الصفرة، تنبعث منها رائحة الأشنات، تغطيها طبقة كثيفة من الغبار، وتناثرت تحتها كومة من الكتب، بان عنوان أحدها "الأبراج". وُضعت خزانة كبيرة جنب جدار الباب، وانتصبت إلى يمين السرير طاولة فوقها مصباح أحمر. دبّت الفوضى في الحجرة منذ توقف خادمه عن المجيء إلى داره.

أشعل المصباح الأحمر، الواهي، وأطفأ المصباح الآخر. ملأ الحجرة ضياء خافت، أحال أشياءها إلى كتل ضبابية، تختلط الحمرة فيها بالسواد. اضطجع على سريره محدقاً في المصباح. اعتاد على تنويم نفسه مغناطيسياً بعد عجزه عن تنويم الآخرين. وضع فوق الطاولة دفتراً كبيراً مفتوحاً على

صفحة بيضاء. تنتابه أحيانا لحظات من الصحو الممزوج  
بفقدان الوعي، فينهض من فراشه، ليخطّ عليها كلمات يفسرها  
صباحاً، معتبراً إياها كشفاً للمستقبل.

اتسعت الحجرة به. اختفى الضوء الأحمر وحل محله ضوء  
النهار. تحولت ظلال جدرانها إلى أشجار وارفة الخضرة،  
والسقف إلى سماء زرقاء صافية. انقلب الفراش إلى عشب  
أخضر ناعم الملمس، تراءت له خزانة الملابس شجرة موز،  
ذات أوراق طويلة، خرجت منها امرأة مرتدية ثوباً أرجوانياً  
شفافاً. تقدمت نحوه، جلست قربه. ذكره وجهها بتلك الفتاة التي  
نام معها يوماً في مبعى تملؤه النساء والضحكات والعطور.  
تبدلت ملامحها، تبدّى وجه آخر له شبيه بوجه كريمة التي  
رغبت الاقتران به. أخبرته الخادم أن أرملة ضابط شرطة تود  
لقاءه. أصابه انفعال شديد. صاح متوعداً: "أطردّها إذا خلّت  
قدمها في الدكان". لكنها جاءت برفقة ابنها الجميل. دخلت عنده  
واضعة نقاباً أسود فوق وجهها. قالت وهي ترفعه ملياً: "أريدك  
تخيّط بدلة لشاكر". داعبت شعر صبيها بكفها اللدن، وارتسمت  
على محياها ابتسامة عذبة. "سمعنا أنت أحسنُ خياطٌ بالبصرة  
كلها". خلّفت كلماتها وشوشة واضطراباً في حواسه، جعلت  
أنفاسه تتلاحق سراعاً، وظل يختلس نظرات شرهة إلى جسدها  
المكتنز المشدود.

شق رافي الجدار، فهربت المرأة منه. أشار إليه بصوت  
غليظ: "يوجد في أعماق كل إنسان إله نائم يمكننا أن نوقظه،  
لكن علينا أن نقتل رغباتنا أولاً". ثم تلاشى وسط وهج الرذاذ  
الأحمر المتصاعد من المصباح.

تقلص الضوء تدريجياً، تحول إلى بصيص نار خافتة منبعثة من ثقب في الجدار. وجد نفسه في حَمَام كبير يملؤه ضباب شفاف، تتضخم فيه الأصوات وتظهر فيه الأجساد العارية أشباحاً تخلف وراء خطواتها رنيناً، يظهر بائع اليانصيب من بينها، يلف وزرة حول بطنه، يقدم له ورقة نقدية زرقاء، ثم يمضي إلى الباب خارجاً منه. يتطلع فيها فيرى عدداً بسبعة أرقام.

هَبَّ من رقده، سجل العدد الذي طالعه وهو يدمدم: "سبعة كواكب، سبع سماوات، سبعة أيام..." جذبته الكرى ثانية، فرأى نفسه هابطاً في درج شاهق الارتفاع، سلالمه عريضة، يفضي إلى مرج فسيح، ينتصب فيه مسجد من الرخام الأبيض اللامع، المتألي، تحت وهج الشمس، تملؤه الرغبة في الدخول إليه، ما إن يصله حتى تنبثق من نوافذه طيور رمادية، فتغطي الفراغ حوله، يسمع حفيف أجنحتها المتواصل، ثم ترتفع إلى السماء مكونة شبكة تتسرب من خلالها أشعة الشمس المتكسرة، نثراً، متوهجاً، متقطعاً.

\* \* \*

حلّ النهار في حجرته متغلغلاً عبر الكرة الصغيرة الملاصقة للسوق، فاتضحت حدود الأشياء فيها. تسربت أصوات العابرين وخطاهم، مختلطة بقرقعات عارضات الحوانيت المرفوعة إلى أعلى. ألقى نظرة إلى دفتره فرأى العدد مبتدئاً برقم 7. كان الرقم الثاني والثالث مشوشين. أنته العلامة أخيراً، سيغلق دكانه مثلما تنبأ رافي، تاركاً وراءه سنوات العمر الضائعة. يسكن بيتاً تعمّره الشمس، وتعتني به

امراته. تناول فطوره بشهية، ثم راح يرتدي بدلته، جاءه صوت البائع: "جرب حظك، السحب بُكرةٌ..." وجب قلبه. اسرع إلى باب بيته. التقى به واقفاً قبالة دكانه، يتطلع مندهشاً إلى عارضته المغلقة. "تعال هنا". صاح فيه، فطفح السرور على وجهه. اقترب نحوه مرتبكاً. بادره بصوت حازم: "ادخل".

أقعده على كرسي من الخيزران في حجرته، يقابله كرسي آخر، وبينهما طاولة دائرية صغيرة. "شفتك البارحة بالحلم، وانا أعطيك كأس ماء" قال بائع اليانصيب، وعيناه تدوران مذهولتين بين ركام الحجرة نصف المعتمة. فكَرَّ جابر بالأحلام، وقد ملكته الدهشة لما رواه الآخر. "من تراهم في الحلم ليسوا إلا أرواح الناس تزورنا لتنبئنا بما يخبئه المستقبل لنا. كل الأرواح تمتلك المقدرة على كشف الغيب. كل شيء من الماء قد خُلِقَ، وسعيد الحظ من يحظى بالماء في حلمه".

– خَلِّي أوراقك على الطاولة وانظر في عيني.

– أحلف لك، عمِّي، أنا شفتك بالحلم.

– لا تخاف.

أطاعه الآخر منكمشاً على كرسيه، وغاصت عيناه في محجريهما. حدَّق جابر فيه دقائق عديدة، فانتابت جسده ارتعاشة شكمت فمه. "اسحب ورقة واحدة". أخذها جابر منه. قارن عددها بالعدد المكتوب في دفتره تحت بريق المصباح الأحمر. أمر بائع اليانصيب بسحب ورقة أخرى ولعدة مرات. قابلته أعداد تحمل نفس أرقام عدده. مرَّ عينيه فوق كل البطاقات فألفى الأرقام نفسها.

فتح خزانة نقوده الصغيرة المكونة تحت سريره. عدّ ما فيها فوجده مساويا لثمن البطاقات كلها. كانت العلامة قد حلتّ.

قال جابر: "إذا جِئْتَنِي بالبشارة، أقدم هدية ما تنساها طول عمرك". نهض بائع اليانصيب،

وساقاه تهتزان، فأمسكه جابر من ذراعه. تمت بصوت مرتعش: "راخ أسافر بنفسى للبصرة حتى اجلب لك جريدة اليانصيب أوّل ما تطلع". أضاف حينما أصبح قريبا من الباب: "الله يجعل كل الجوائز من نصيبك".

### 3

عبر الليل طويلاً وثقيلاً عليه، أغفى خلاله، ولدقائق، مرات قليلة. رأى نفسه في إغفائه الثانية على ظهر سفينة شراعية، مرتديا ملابس بيضاء، ويقف إلى جانبه رافي. تعول الريح حولهما، فتتمزق الأشرعة البيضاء بها، تتكسر أمواج البحر على سطح السفينة، تاركة وراءها رشّات من الزبد الأبيض. كان هناك رجال فوقها، غير مباليين بما يجري. يشبه أحدهم أخاه، يلمح له رغم الدجّة التي تلفهم، مقرفصاً في زاوية، يمزغ لباناً.

هدأت الريح فجأة، وساد الكون هدوء مطلق، ثم علت البحر ملايين من الشموع الطافية على صفائح خشبية، فاشتعل البحر بها. قفز رافي إلى البحر ومشى فوقه، بين صفين من الشموع، حتى غاب في الأفق.

راوده الشك بأن بطاقاته قد سرقت منه، أخرجها من خزانة النقود، وضعها على الطاولة، ثم كتب أرقامها على ورقة كبيرة.

يأتيه النهار مرة أخرى، وبائع اليانصيب قد نكث بوعده. هل دهسته سيارة؟ مرض ألمّ به؟ أو...؟ يحل النهار أخيراً، وتبدأ الحياة في الخارج من جديد. فتح أبو علي دكانه. ها هو يسمع حديثه مع العابرين، يساومهم على ثمن العنبة التي شحّت في

السوق، يقسم لهم بأغلظ الأيمان مؤكداً على جودتها. وبائع  
اليانصيب لم يأت إليه بعد. ودّع البارحة، باعة السوق وأقاربه.  
جاءه تاجر الأثاث العتيق، واتفق معه على شراء محتويات  
دكانه. بائع اليانصيب لم...، ترتفع الأصوات حادة في السوق،  
تزداد خطوات رواده فيه. إنه الضحى الآن... أصبحت المدينة  
غريبة عنه، كل ما كان يشده إليها قد تقطّع. شعر خلال اليومين  
السابقين أن له جسداً خفيفاً، كأن أجنحة خفية تحمله. اختفت  
الآلام من صدره، زال ضيق التنفس عنده. يأتيه صوت المؤذن  
معلنًا عن صلاة الظهر. ترتفع الشمس إلى سمت السماء، وبائع  
اليانصيب لم يظهر...

نهض من سريره، ودوار يمسكه. عاين، في المرأة، شعر  
رأسه المطلي بالصبغ الأسود، وكحل أجفانه. "لولا هذا الورم  
الخفيف الذي يحيط بعيني لبوت في الأربعين". عليه أن  
يذهب لشراء الصحيفة.

تهللت أسارير أبي علي، حينما رأى جابراً قادماً نحوه. توقف الآخر منذ سنوات عن التحدث معه، عدا تحية الصباح والمساء، وظل الخجل ملازماً له كلما بادر في التحدث معه. إذ يشعر أن جابراً متفوقاً عليه كثيراً، فهو يعرف القراءة والكتابة، يستطيع التكلم بلغة أخرى لا يفهمها، يرتدي كل يوم بدلة نظيفة، بخلاف الآخرين الذين يتلفعون بملابس تقليدية كملابسه. كان جابر، قديماً، يضع قبعة على رأسه. يختلط بأجانب وأثرياء، يأتون من بعيد لزيارته، بينما هو يدور بعربته على البيوت، مبدلاً الملابس العتيقة بالزجاجيات - كم مرة دعاه جابر إلى بيته النظيف، المنظم، لتناول الغداء عنده. يركن عربته في رواق بيته، ويجلس وحيداً في المطبخ خلف طاولة. تقدم الخادم له الطعام، وتجبره على الأكل بملعقة نحاسية.

لم يدخل إلى غرفة الضيوف سوى مرتين، حياً في خجل أصدقاءه "الأفندية" الذين كانوا يحتسون الشاي من إبريق خزفي مذهب.

تبدلت الحياة اليوم، وحال جابر تسير من سيء إلى أسوأ. تحول بيته الذي شاهده وقت مرضه، إلى خربة. أما هو، فلديه قصر قريب من الشاطئ، أبنائه الخمسة يذهبون إلى المدارس، وكبيرهم سينهي دراسته الجامعية هذا العام. انقضت أيام الفقر والجوع إلى الأبد، لكنه ما زال يخجل من جابر، ينتابه شعور

بالذنب كلما التقى به، لكانه مسؤول على ما حل به من بؤس. لو يقبل دعوته للمجيء إلى بيته، مرة واحدة، كم يود أن يريه ما يمتلكه، ليُشعره أن لا فارق يفصلهما اليوم. فرح كثيراً، حين أخبره جابر بنيته على السفر. إذ ظل الآخر كابوساً متسلطاً عليه، يشعره بدونيته، كل يوم، عنه. فكَرَّ قبل سنوات بتبديل مكانه، لكنه خاف من سخط الخياط عليه، إذا حسب فعله هذا نكراً للجميل، فألغى فكرته.

"ما شفتُ بائع اليا نصيب؟" سأله جابر وعيناه تتسمران فوق عينيّه.

– من شهر ما مرّ ولا واحد منهم قدّامي.

– أنت متأكد؟

– عمّي، أنا اقدرُ أكذبُ عليك؟

"إذا احتجت لشيء... فانا أخوك في الدين." أضاف أبو علي عبارته الأخيرة بعد أن لمح امتعاضاً على عيني جابر الحمرّوين. خشخش دون إرادته بقطع النقود، فرمقه الخياط بنظرة نارية أجبرته على إخراج يده من جيبه. مضى جابر دون أن يحييه، تاركاً إياه في دوامة الامتعاض والخجل من نفسه.

غامت الدنيا في عينيهِ، اندفعت أنفاسه بنشيج متواصل من فمه وأنفه. بين العشرة جوائز الأولى لم يقرأ عددا مماثلاً لما لدين. رمى الصحيفة جانباً. ألقى بنفسه على السرير، فارتج تحت وطأة جسده. تذكر عبارات الوداع المثرة التي تلقاها من الآخرين بعد إخبارهم عن نيته في الرحيل. كيف سيواجههم غداً عندما يفتح دكانه ويجلس خلف ماكنته؟ أي نكات سيصوغونها عليه حالما يكتشفون قصته؟ ستظل المدينة تلوك ما جرى له جيلاً بعد جيل. هو الذي يهابه الآخرون ويستشيرونه بملماتهم، يوقعه رجل أبله في حبال مصيدته...

ترسخ في نفسه إحساس قوي، بأن ما يشده إلى الحياة خيط رفيع: لو يفوز بجائزة تحمل أقل مبلغ: خمسة دنائير فقط. ستمنحه شرارة الحظ هذه دفعا قويا للتشبث بها. يتذكر عرض زبون ثري من البصرة، عليه بفتح مشغل للخياطة، يكون هو مديره، مقابل نصف الربح، إلا أنه رفض عرضه آنذاك، لكرهه أن يكون مروؤسا من آخر. متجره في "سوق الهنود". سيذهب ويبحث عنه، لكنه يحتاج إلى بصيص أمل. أن يتأكد أن الأنس والجن لم يتفقوا جميعهم ضده. سيغلق دكانه ويغادر قريته حالما يقبض على تعويذة الحظ بيده.

أمعن النظر في الصحيفة، واضعاً فوقها عدسة مكبرة، قارن أعدادها بما لديه، فلم يجد سوى عدد متشابه، تتماثل أرقامه مع

عدد عنده، ويختلف بترتيب واحد بين رقمين عنه. وضع خطأً تحته، دار في الغرفة قليلاً، قارن بينهما ثانية، كان الاختلاف راسخاً تحت عينيه. سمع كركرة خلف باب حجرته، كأنها ضحكة بائع اليانصيب المختنقة، فانقض على أكرة الباب. ظن أن عينيّن تلتمعان وسط العتمة. مضى في الرواق حتى آخره، فأفزع فار قفز بين ساقيه.

نازعه الشك بحقيقة ما حدث له، إذ يخلط أحياناً بين الواقع وأحلامه. قد يكون البائع فكرة زرعها إبليس في رأسه أو روحاً شريرة تقمصت شكلاً إنسياً فراودته عن نفسه. سيرى الآن نقوده مصفوفة فيها على ثلاثة رزم. "قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس الذي..." ظهرت له البطاقات الصفراء، على كل منها صورة بناية كبيرة، مكتوب فوقها: شاركوا في بناء المستشفيات. حمل الأوراق بإبهامه وسبأته إلى أعلى، ثم رماها في الفراغ، فانتشرت فوق البلاط تاركة خلفها حفيفاً ثقيلاً.

كيف وصلت هذه الأوراق إلى حجرته. لربما هو خداع البصر الذي يصيبه أحياناً بتأثير الجن الذي يسكن بيته منذ سنوات. أخذ بطاقة من الأرض، حدّق فيها دقائق، ثم أغمض عينيه قليلاً: "تحولي إلى شكلك الأصلي..." لكن اللون الأصفر واللمس الخشن ظلاً لاصقين بها. أعاد نظره إلى الأوراق فوجدها تتحرك، كأن ريحاً خفية تسوقها، "بائع اليانصيب يجلس بين أبنائه فرحاً، وهو يحدثهم عن الخياط المغفل..."

اضطجع على فراشه، غطى جسمه حتى مؤخرة رأسه. كانت وشوشة تملأ أذنيه، أصوات العابرين تتفكك، تتحول إلى

هدير منتظم، يزداد عنفاً، فيجبره على النهوض، والابتعاد عن النافذة إلى طرف الحجرة الأبعد.

ركّز تفكيره، نظّم أنفاسه: شهيقاً، فحبسَ الهواء في الصدر نصف دقيقة، ثم زفيراً عميقاً، لكن الضجيج ظل يحاصره. حَمَلَقَ في المرأة، ظهر له رجل عجوز، مترهل، بشعر ابيض، منفوش، وغضون متشابكة فوق وجهه، يحرك فمه دون صوت ذكّره بعرائس الدمى. هل هو الشيطان قد حضر قدامه؟ رفع رأسه إلى السقف، بانّت له خطوط الأرضة كأنها عروق نابثة فيه، تتدلى منه أنسجة العنكبوت الكثيفة. شعر أن السقف منخفض أكثر من قبل، يكاد أن ينطبق عليه. أعاد النظر إلى المرأة، استقبله شاب وسيم، يتقطر الدهن من شعره المفروق، لكن الصورة اختفت سريعاً، ولاح له الشيخ، المنهوك، بأنفاسه الثقيلة، مرة أخرى.

ضرب المرأة بكرسي قريب منه، فتكسرت قطعاً، تاركة وراءها صليلاً قوياً. أسقط أكداش الكتب الموضوعة في الرفوف. رفع المصباح الأحمر، والقاه على الأرض بعنف. قلب الكراسي والطاولات. فتح باب خزانة الملابس الأيسر. مد يده إلى الطابق الأعلى الذي يعتلي رأسه، خشخشت بين أصابعه قطع معدنية وزجاجية: هدايا قديمة وتذكارات عمرها نصف قرن. أمسك جسماً صلباً بارداً. صرّ بأسنانه: "لازم أقتله".

فاجأه هدير السوق، دوامة تتلقفه، فيندفع يميناً، بخطى واهنة، مرتعشة. سأل العديد من الباعة إن كان أحدهم قد لمح بائع اليانصيب. أعطى أوصافه الكاملة: تفاصيل وجهه،

ملا بسه، صوته، لكنهم أنكروا رؤيته. مضى حتى نهاية السوق، استقبلته الشمس قرصاً متوهجاً تلوح من خلف صف البيوت والدكاكين المتجاورة على الطرف الآخر من الشارع الرئيسي الذي يوصل إلى ميناء الفاو. عبرت شاحنة ملأى بالطابوق، وأخرى معبأة بقناني الغاز المعدنية تاركة خلفها دخاناً وضجيجاً، فجَرَ خطواته إلى الداخل حيث الظلال الرطبة، الساكنة في جوف السوق، تتقاطع بينها أشعة متسللة عبر ثقب السقف، يتطاير فوقها الغبار الرمادي المشعشع بالضياء.

اجتاز ثلاثة دكاكين. التفت يساراً إلى زقاق متقاطع مع السوق، نصف معتم. لاح له بائع اليانصيب في زاوية منه، متكئاً على الجدار بملابس جديدة. لمح، فانقلب على عقبيه. أوسع جابر خطاه خلفه، ضاعطاً على مقبض المسدس الذي في جيبه. تسارعت خطى البائع، تاركة وراءها كركرات متقطعة. انعطف يميناً إلى زقاق قصير لا منفذ له فتبعه جابر فيه، لكن الآخر قد ذاب وسطه. جذبه رأس غزال معلق فوق باب كبير، فراح يحدق فيه طويلاً. اهتز الرأس، وأخرج له لسانه. "إنهم الجن يعبثون بي". سحب أقدامه، تلاحقه ضحكات مجلجلة.

عاد إلى السوق مترصداً عابريه، ترقبه الأعين، تطل الوجوه من الدكاكين مشدودة إليه، تعلوها الدهشة لحالته. قاطعه ثلاثة صبية يتطلعون إليه منذهلين. تذكر أنهم الذين أيقظوه من غفوته يوم حضور البائع إلى دكانه. قد يعرف أحدهم بيته. اقترب منهم خطوة، فهربوا راكضين، تتبعهم خفقات أقدامهم العارية على الدرب الترابي، يصله رنين ضحكاتهم، فيهتز لها جسده المبلل بالعرق.

ارتسمت على شفتي بائع الدبس ابتسامة غامضة. "هل توطأ مع بائع اليانصيب ضدي؟" اقترب من البائع الذي ما فتئ يضحك. "مضِيعُ لَكُ شيء اليوم عمي؟" نظر جابر إلى الدكان من خلف كتفي صاحبه، فالتفت الآخر معه، كانت العتمة لا تظهر منه إلا أجساماً مختلفة في دجنتها. أتاها صوت، ضحكة، هزات صفائح فارغة. تنشر قرقرة قوية. قال البائع: "تريد تشتري تمر لو دبس؟" ثم اشعل مصباح دكانه. واجهته الأشياء المبعثرة على أرضيته، التي ظهرت أصغر بكثير مما ظنها. غمغم بصوت مختنق: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...".

عبر دكانه ومقلناه تلتهمان المارة باحثاً بينهم عن عدوه. وصل إلى مؤخرة السوق، أفرعه ضوء النهار خارجه، فانقلب إليه ثانية. تحلق حوله حشد من الصبية والمراهقين. صرخ دون كلمات: "ما الذي تودون سرقة مني؟".

كانت هنالك حلقة من العيون المتوثبة عليه، تضيق وتتسع حول خطواته المتعثرة يبحث بينها تارة عن غريمه، وتارة ينكمش على نفسه هلعاً منها.

حضر فجأة رجل بعمامة بيضاء، فشق تلك الغمامة البشرية بذراعيه، ليتركها تتلاشى وسط السوق. رفع جابر رأسه، فرأى رافي أمامه، يتلأأ وجهه جذلاً. صاح به: "لقد أنقذتني". فهزّ رافي له رأسه موافقاً:

- سأظل صديقك إلى الأبد. أين تريد الذهاب؟

- لا أدري. ما الذي تقترحه؟

- اترك جسدك العتيق اتبعني.

- إلى أين؟

— ستحل في جسد مولود آخر، ألا تريد البدء من جديد؟  
تحمل كل ما تعلمته، وتتقدم روحك خطوة أعلى نحو الرب.

— لكنني أريد جسدي هذا. ألا تعلم أننا سنبعث فتياناً بأجسادنا  
في الآخرة ثانية؟

— أرواحنا ليست إلا شرراً منبجساً من النار الكبرى. أعظم  
ما يحققه المرء أن يبلغ المصدر، فينطفئ فيه. أن يعود المسافر  
بعد اغتراب طويل إلى وطنه، هناك حيث لا ولادة، لا موت،  
لا بعث آخر.

— اسكت أيها الكافر.

— سأنتظرك في الدكان.

اختفى رافي، فظهر الحشد لجابر ثانية، تنطلق منه أصوات  
عنيفة وضحكات حادة، يتطاير الشرر من أحداقه وأسنانه،  
فيغمره الرعب مما حوله. اندفع مسلوب الإرادة صوب دكانه،  
الذي بدا له كآخر قلعة بقيت لديه. فتح عارضته قليلاً، انسلّ إلى  
الداخل، ثم انزلها وراءه.

سمع الناس أصوات رجال يتحدثون بلغات عديدة، تلاها  
تكسر أشياء، وقرقعة، فاصطفاق حاد، كأنه انغلاق قوي لباب  
خشبي. اندلق، بعد سكون غامض، طويل، سائل أحمر على  
هيئة خط رفيع من تحت عارضة الدكان، ثم راح يتجمع في  
حفرة صغيرة وسط الشارع. كان المساء، آنذاك، قد حلّ في  
تلك المدينة الصغيرة.

وهران 1983

## ضحكات آخر الليل



كانت آخر عربات الدرجة الثالثة غاصة بالناس، مساء ذلك الخميس، والهواء ثقيلًا مشبعًا بالغبار والقيظ، جعل العرق ينضح غزيراً فوق الوجوه، فراحت الأيدي تمسحه، دون جدوى بالمناديل المبللة. قالت أمه: "لا تطلّع راسك من الشباك". لكن الجلبة حولهما منعتهم من التقاط كلماتها، إذ تدافعت في الداخل نداءات الباعة المتجولين اللوحة مختلطة باللغات المنصبة على رؤوس الحمّالين الصغار. ومن مقدّمة الرصيف المقابل لإحدى مقصورات الدرجة الأولى، لعلت زغاريد العرس المحمومة، وسط ضربات الدّمّام وصفير البوق النحاسي.

سحبته أمه بعنف من كتفه، كازّة على أسنانها: "اقعد بمكانك ولا تتحرك". ومن عينيها الصغيرتين تطاير الغضب صوبه، فمنعه من الاستفسار عن السبب.

قال أبوه مخفّفاً عنه: "مو عينك تتأذى من التراب".

قالت سلمى متباهية: "آني أبدأ ما اطلّع راسي من الشباك".

قالت أمه: "إنّ أعقل منه".

لكنها لم تلبث أن استرضته، حينما أعطته نصف برتقالة، فزال الانقباض والخوف عنه، قدّمت النصف الآخر إلى أخته، ثم عادت تخرج بمروحتها اليدوية الهواء القريب من وجهها، وأحياناً تنقلّها إلى وجهي طفليها.

قال أبوه: "كان أحسن لنا، لو قاعدين بالدرجة الثانية".

قالت أمه محتدة: "جداً غالية هناك".

قال أكرم لأخته: "خلي نحرّك القطار". فهزت رأسها موافقة. أمسك كلاهما بذراعي مقعديهما، وراحا يدفعانها بكل قوتيهما. ارتفع صفير القطار طويلاً. تنفس الناس الصعداء، واعيّنهم تحديق في الرصيف نصف المضاء، حيث انتشر بخار الماكنة فوقه، في تلك اللحظة، انفتح باب العربة، صعد إليها رجل أشعث، ممزق الملابس، بلحية طويلة وحذاء عتيق، تتبعه امرأة عمياء، مرتدية عباءة مرقعة بقطع قماش بيضاء وحمراء. انتشر هسيس تلك الكلمة بين الجمع: "مجنون". ثم راحوا يراقبونه في حذر. نهض جندي تاركاً مقعده للمرأة، لكن مرافقها جلس بدلاً عنها، مما دفع الشخص المجاور له، إلى التخلي عن كرسيه، فاسحاً المجال لهما لاحتلال المصطبة الخشبية ذات المقعدين.

صفر القطار آنذاك، مرات عديدة، وعلى الرصيف ظهر رجل عجوز يحمل قنديلاً، ملوّحاً به للسائق من مؤخرة المحطة. قال أكرم لأخته بأنفاس مضطربة، لحظة اهتزاز العربة: "ادفعي بقوة". ولم يتوقفا حتى اندفع القطار في حركته دون تقطّع. رفع رأسه إلى أبويه، سعياً لكسب رضاها عنه، لكن أمه كانت منكبة في متابعة المرأة العمياء والمجنون، الذي اندفع في الحديث مع أقرب رجل قرّبه: "هذي أختي". ابتعد الآخر عنه قليلاً، خوفاً من تهوره. التفت إلى العمياء هذه المرة:

- تعرفين إحنا وين رايعين؟

- إلى بغداد؟

- لا إحنا مسافرين إلى أمريكا.

تضاعفت سرعة القطار، أمست قرعاته شبيهة بضربات سنابك الخيل، مما جعلت أكرم يحول العربة إلى حصان جامح، والهواء إلى لجام جلدي، ضارباً بحذائه طرفي بطنه. تحركت الأشياء باتجاه معاكس لهم: الأشجار، الأعمدة الكهربائية، السيارات والأبنية. كان القمر قد تسلق آنذاك سلسلة الهضاب البنية المتوازية مع السكك الحديدية فمضى يلاحقهم بإصرار شديد. سأل أكرم أباه:

- القمر أكبر لو المخدة؟

- القمر.

- يعني هو بَقْد بيتنا.

- لا، أكبر بكثير.

انطلق الجنود، الجالسون حول مصطبتين متقابلتين، بالغناء. حلّ البعض منهم أحذيتهم العسكرية، فتخثرت في الهواء رائحة عطنة. وبعضهم استلقى على الرفوف الخشبية المخصصة للحقائب، قريباً من سقف العربة، وهم يتبادلون الحديث والضحك مع رفاقهم الجالسين على المقاعد، مثيرين حنق الآخرين الصامت عليهم. لكن الصوت الدؤوب، الرتيب، الذي تبعثه اهتزازات القطار المنزلق على السكة الحديدية، ونسمات الهواء المتسربة من النوافذ المفتوحة، قد بعثت الهدوء والصمت فيهم، أخيراً، فراح بعضهم يراقب خطوط المصابيح المحمولة على صفوف الأعمدة الكهربائية، حيث تختفي من وقت إلى آخر، تاركة فراغات من الظلمة المنبثة فيها نجوم متألئة.

انفجرت ضحكات المجنون الصاخبة، فأفزعت بعض الركاب الذين التفتوا إليه بامتعاض. "شوفي إحنا شلون طاييرين بالهوا"، قال لأخته التي ظلت ماسكة بالمقبض البارز من المقعد المقابل لها، يتقلص وجهها عن ابتسامة غريبة. "هسة تشوفين قصري شَقْدَ كبير"، ولم تقابله إلا بهزات رأسها المتشككة. "إنت ما تريدين تبقين عندي، مو تمام؟"، وقبل أن تجيب بشيء، اندفعت يده ضاربة مؤخرة رأسها. تصاعدت أنفاسه حادة، توترت عضلات وجهه، لكنه، فجأة، احتضنها: "هذا النمل براسي مرات يهيجني".

قالت سلمى لامها: "أني جوعانة". فناولتها بيضة مسلوقة مقشرة وقطعة خبز. اقترح الأب إعطاء شيء من الأكل للرجل الأشعث ومرافقته، فوافقت زوجته. أخذ أكرم لُقّة خبز بجبن إليهما. وحينما قدمها إليهما بوجل، امتلأت عينا المجنون فرحاً. قال أكرم لأخته: "عيّنه حَمراً مثل الدم".

وشياً فشيئاً، غمرهم الخدر تدريجياً، وأول من وقع في شراكه الأطفال: نام أكرم وسلمى، متخذاً كل منهما حضن واحد من أبويهما مخدة، وظلت عباءة الأم مشدودة على الرأس. نام الجنود والعُمياء، وظل المجنون مسكوناً بالصوت الذي بدا له كصدى طلقات بعيد، فيردد مفزوعاً: "حَرْبٌ، حَرْبٌ.. حَرْبٌ.. حَرْبٌ"، مقلداً إيقاع نبضات القطار، متمتعاً بالضوء النيوني الهابط كأشرطة ملونة فاقعة على عينيه.

توقف القطار في محطة جلولاء. نزل البعض من الركاب، وصعد شرطيان، أحدهما برتبة عريف. انسلا بهدوء وسط الركاب حتى وصلا إلى المجنون، فوقفا جنبه قاطعين الطريق عليه، وقبل أن ينتبه إليهما، أطبقت على معصميه الأصفاد،

وبحركة لا إرادية همّ في النهوض للتخلص منهما، لكن العريف ضغط على كتفيه ضغطاً قوياً حتى أعاده إلى مقعده.

قالت العمياء: "خير إن شاء الله؟"

قال الشرطي: "ماكو غير الخير أختي".

قال العريف: "صار له أكثر من شهر هارب من المستشفى".

تمتت العمياء: "وآني؟"

دمدم المجنون: "سكارة.. سكارة"، مشيراً بسبابته ووسطاه إلى فمه، فقدم الشرطي له واحدة. قال العريف، ضاحكاً، معاتباً إياه: "تعبتنا كثير وياك". قال المجنون: "آني مثل أخوكم". ثم ضرب أخته بطرف كوعه، صارخاً: "أنتَ خبّرت الحكومة عني". فراحَت تعول بنشيج متواصل. لكنه ما لبث أن استرضاها حتى غفت ثانية.

ظل الشرطيان يدخانان في الفسحة المقابلة للباب.

قال الشرطي الشاب: "ليش ما نخليه يروح بدربة؟"

قال العريف: "آني عندي عائلة وأخاف أتأذى. أنت بعدك بلا أي مسؤولية".

صمت الشرطيان. تسلل النوم، مرة أخرى، إلى أعين المسافرين، وظل المجنون يغني، بكلمات مهشمة، لا معنى لها، برفقة الدوي المتواصل للقطار، والبدر الذي ظلّ يبادلُه الحديث والضحكات طيلة بقية الرحلة...

لندن 1989



## مملكة النمل



من سيصدق منكم حكايتي؟ أعلم أنكم سترددون حال انتهائي منها: "هذيان مجنون". وانا ينتابني مثلكم، أحياناً، الشك بحقيقة ما يدور في ذاكرتي ليل نهار، قرقة مأكنة تضجّ في رأسي دوماً، برغم الأدوية والكهرباء وركلات الممرضين، برغم أنها وقعت قبل أعوام كثيرة، كثيرة جداً، عشرة أعوام، عشرين عاماً، ثلاثين، أربعين... لكنها ما زالت طرية في مجمعتي كأنها حدثت البارحة. ربما تكون حلماً، ربما قد جرت لشخص آخر غيري، ربما... لكنّ اسمه عدنان، نعم، عدنان عبدالجبار، ابنه البكر سعدي، يكنّيه الكل بابي سعدي، في العمل، في البيت، في المحلة، في كل مكان. ها، ها، ها... تستغربون لضحكي، إلا أنكم حتماً ستشاركونني الضحك حتى يصيبكم الإغماء حينما تسمعون القصة كاملة.

كنت في ذلك الوقت سياسياً، (توقفوا عن الضحك والإ...)، عضواً في الحزب. كم جنبني الانتماء إليه المشاكل، لا يسبّب لي، على سبيل المثال، الذهاب إلى الدائرة متأخراً عشر دقائق أيّ إحراج أمام المدير: لا أسئلة، لا نظرات لوم أو سخرية، لا كلمات نابية جارحة. درجته الحزبية أقل من درجتي. ها، ها، ها... كذلك فأنا لا انحني للذين هم أعلى منّي مرتبة، بل انحني أمامهم لسيدي، فيشاركونني في الانحناء أكثر فأكثر. نحن جميعاً نبرك على ركابنا وننهض في وقت واحد له، كأنا نؤدي صلاة الجمعة حتى إمام الجامع يركع مثلنا: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. ها، ها، ها...

أصارحكم القول أن حبي لسيدي وخشيتي منه قد بلغا درجة جعلتني أشعر بحضوره أينما حللت، مثلما يرافقني المَلَكُان الصالحان دوماً على كتفي، ولم يكلفني الوصول إلى منصب نائب المدير أكثر من خمسة أعوام خدمة حزبية في وقت أقصى من لديه خدمة أطول عن احتلال المناصب السامية لعدم انضمامه إلى الحزب مبكراً. كل يوم، وحينما أضع رأسي على المخدة، أشعر بالطمأنينة، لعدم قيامي بأي فعل يغطا منه سيدي، وإذا زار الدائرة التي أعمل فيها غداً، سيربت على كتفي، بلا شك، بعد أن يشاهد ما حققته خلال فترة قصيرة من احتلال المنصب في المؤسسة. كل الجهود التي بذلتها في عملي هي لإرضاء سيدي، وتهيئاً لليوم المشهود، حينما نلتقي وجهاً لوجه: يوم تسودّ وجوه ويوم تبيضّ وجوه... أراه في الحلم، أحياناً، يداعب أطفالي، حيث يملأ الرضا أسارير وجهه مني. طوبى لمن لهم سيّد كسيدي...

تسكن، منذ زمن بعيد، عائلة أبي سعدي جوارنا. لا يفصلنا عن بعض سوى جدار. لا يفترق أطفاله عن أطفالي، زوجتي وزوجته أكثر من أختين، وأنا وهو صديقان حميمان. نذهب معظم أيام الأسبوع إلى المقهى مساءً، نلعب الورق أو الدومنة مع الآخرين كفريق واحد. نتفاهم جيداً في الأعين أثناء اللعب، ولن أبالغ إذا قلت أننا أفضل لاعبين في المنطقة كلها. حينما أذهب إلى المقهى وحدي يسألني الآخرون عن أبي سعدي، مندهشين لعدم حضوره معي... كنا توأماً سيامياً، ها، ها، ها... كنا عائلة واحدة، أطفالي يبيتون أحياناً في بيته، وأطفاله يقضون الليل عندي أحياناً أخرى. لقد توثقت علاقتنا ببعض إلى حد أننا فكرنا بإسقاط الجدار الفاصل بيننا.

يعمّ الفرح الجميع، حينما يلتقي الصغار ببعضهم، حينما تلتقي زوجتي بزوجته، حينما التقى به، والحديث يدور عنهم مثلما هم يفعلون أيضاً.. كانت سنوات خير تلك التي قضيناها متجاورين.

تلتقي حلقتنا كل أسبوعين. يخبرنا المشرف عما هو جديد من قرارات سيّدي وتوجيهاته. يسأل عمّن يودّ الانضمام إلينا، أو عمّن هو... معادٍ لسيّدي. لا يستغرق الاجتماع وقتاً طويلاً، وهو في غالب الأحيان لقاء روتيني بين أصدقاء يجمعهم هدف واحد، وإرادة واحدة، يقفون في خندق واحد.

ما كان على أبي سعدي أن يقوم بذلك الفعل الشنيع، المتهمور، أمامي. بل يمكن اعتبار تصرفه استغلالاً لطبيعتي، وحبّي له: في بيته، ونحن نشرب العرق معاً ونتابع برامج التلفزيون دون تركيز واهتمام كبيرين، ظهر سيّدي على الشاشة لإلقاء خطاب جديد، فتعكر مزاج جاري. أمر ابنه بإغلاق التلفزيون. لم يكتف بذلك، بل سألني قبل أن يفتح جهاز التسجيل أيّ مغنٍ احب الاستماع إليه. في تلك اللحظة أحسست أن سيّدي جالس داخل التلفزيون، وأنه قد ألقى عليّ نظرة مواربة مستفسراً عن موقفي تجاه أبي سعدي، وهذا ما جعل الدم يتدفق في عروقي أسرع فأسرع، والعرق كله يتبخر من رأسي فوراً. من يجراً بربكم على القيام بفعل، أخرق، شائن، كهذا، سوى الأشرار، سوى الخونة، سوى...

سألني المشرف إن كنت قد شاهدت سيّدي في التلفزيون، وحين أجبتّه بالنفي، التفت الحاضرون بعضهم إلى بعض مندهشين لجوابي، إذ سجّل كل منهم ملاحظات تثمّن الخطاب

وتبين ما الجديد فيه. اعدّ بعضهم أسئلة حول ما خفي عنهم من معانٍ عميقة. فاجأني المشرف بغتة بسؤاله: "لماذا؟" ففالتت مني تلك الجملة: "أطفأ جاري التلفزيون إثناء..." زادت الدهشة على الوجوه، تقوَّس حاجبا المشرف، ظهرت الخطوط على جبهته أعمق من قبل، ضاقت عيناه المسلَّطتان عليّ. ظهر لي سيّدي وراءه مختفياً يراقب ما يجري في تلك الحجرة، فرحت أتحدث عن جهودي التي بذلتها لتغيير أفكار جاري. كم سعت أن أجعله صديقاً للحزب، محباً لسيّدي، لكن مرضاً نفسياً أعاق تحوله نحو عالم الخير، وكم هو في حاجة إلى العلاج. أعطيت تفاصيل أخرى صغيرة عن سلوكه المعادي لسيّدي، بعضها وهمية، لكنها بدت في ذلك الوقت حقيقية لذاكرتي. طلب المشرف مني كتابة ما قلته برسالة تفصيلية، ففعلت فوراً. حاولت أن اجعل خطّي أجمل ما استطيع. ها، ها، ها...

دعانا أبو سعدي إلى بيته مساء. أعدت زوجته مائدتين كبيرتين، واحدة للصغار وأخرى للكبار. كم تجيد أم سعدي الطبخ، تعرف الكثير من الأكلات الشرقية والغربية، وكم تفرح حينما يسألها الضيوف عن أسمائها، أو عن كيفية إعدادها، بعكس زوجتي التي لا تجيد سوى أربع أو خمس أكلات تعلمتها من أمها، وتكررها طيلة أيام السنة. كانت المناسبة ترقية في السَّلم الوظيفي. قالت زوجته كم هم فرحون بصداقتنا وجيرتنا لهم. قالت زوجتي أننا نكنّ لهم نفس المشاعر. وكان الأطفال يلعبون ضاحكين، لا شكوى تأتينا من بعضهم ضد بعض، لا بكاء، لا صرخات منهم. وحينما ودّعناهم، انغرزت عينا أبي سعدي في عينيّ، طافحتين بمشاعر الصداقة العميقة، فقبّلته بكل إخلاص، وظلت نظراته مرافقة إياي تلك الليلة.

بعد اعتقاله بقيت واقعا تحت وطأة الهلع، خوفا من اتهامي بالتواطؤ معه. ما الذي سيحدث لي إذا فكر جاري بطريقة "عليّ وعلى أعدائي"، فزعم أننا مشتركان في نشاط تخريبي ضد سيّدي؟ ما الذي سأقوله إذا وُضعتُ أمامه وجهاً لوجه؟ ما الذي...؟ ظهر لي سيّدي خلال تلك الأيام العصيبة في الحلم مرات عديدة، حيث بدا الغضب على محيّا، وتطاير الشرر من عينيه المسلطتين عليّ. رأيت نفسي في أحد تلك الأحلام، داخل صالة كبيرة كأنها محل لبيع الجلود، غُطّيت الأرض والسقف والجدران بجلود البقر، واستند السقف على أعمدة خشبية، أفقياً وعمودياً، تتدلى منها سلع كثيرة، معلقة كلها بمسامير وكلايب: كؤوس ذات أذرع، حبال، أشرطة جلدية، حقائب جلدية... سلع كثيرة تملأ السقف والجدران، لكنها جميعاً معلقة. ظهر لي سيّدي واقفاً في شرفة تطلّ على الصالة، ويفصلها درابزون عنها. قال باشمئزاز وسخط واضحين: "سنعفو عنك إذا عبرت الصحراء ركضاً. انصرف...". لم يكن الصوت قادماً منه فقط، بل من الجدران والنوافذ والسقف والجلود والأرض والهواء. ثم وجدت نفسي وسط أعداد كبيرة من الراكضين في شارع ترابي، يغطي الغبار المتصاعد منه مختلطاً بالعرق النازف من أجسادنا، استيقظت فزعاً. كانت الساعة الثالثة تقريباً، وزوجتي تغطّ في شخير، ثقيل، متواصل، جعل النوم عسيراً عليّ ثانية.

جاءت البشارة أخيراً: رسالة شكر وتشجيع من الذين في القمة تقديرًا لإخلاصي، وترقية حزبية جعلتني مشرفاً على الحلقة التي كنت عضواً فيها، فاقتربت خطوة نحو سيّدي. نسيت أثناء تلك الأيام المفرحة جاري، بل كدت اذهب إلى بيته للالتقاء به، حتى جاء النبا اليقين.

لن أتحدث عن أمور تقع كل يوم، في كل مكان، وكل زمان، وهي سنّة الحياة، سنّتكم أم أبيّتم. ستقولون عني أنني واثق، (رغم أن فكرة عقابه بهذه الطريقة لم تراودني لحظة واحدة)، لكنكم ستكتشفون خطأ حكمكم إذا نظرتكم للمسألة من زاوية أخرى. أليس موقفي يدلّ على حزم ومبدئية يتمتع بها كل سياسي مخلص وصادق؟ إذ ما الذي سيحدث لو أن أبا سعدي ترك له العنان ليجمع أعواناً حوله، وهؤلاء سيتكاثرون مثلما تتكاثر خلايا السرطان؟ هل وُجد علاج آخر للسرطان غير الاستئصال؟ الاستئصال، صال، صالة، صالون، صابون، صلب،

ها، ها، ها...

أقيمت مراسيم الفاتحة كالعادة على روح أبي سعدي. لم يكن لجاري أقارب في العاصمة، وهذا ما جعلني أتحمل أعباء الفاتحة كلها: تكفلت بكل المصاريف، استقبلت المعزين الذين كانوا يواسونني عند خروجهم ودخولهم نيابة عن أسرة الفقيد. حضر الفاتحة رفاقي أيضاً. أحدهم، غمز لي بعينه اليمنى قبل مغادرته الحجرة. لم يكن تصرفه ناجماً عن خبث أو رغبة في الإيذاء، بل هو مزاح أصدقاء يرغبون في التعبير عن تضامنهم معي، ولقد بادلتهم الغمز بطريقة تجعل وجهي محافظاً على حزنه أمام الآخرين، ولكأنني أردت أن أقول: كم الآخرون مغفلون حينما يصدقون ما يرونه، ها، ها، ها... لكنني في الحقيقة كنت متألماً لموت جاري. أذكر أنني قبل خروج المعزين بساعة، غرقت في نوبة بكاء حادة استمرت وقتاً طويلاً. كأن هنالك قوتين تحركانني: أحدهما نحو سيدي

والأخرى نحو أبي سعدي. في ذلك الوقت لم تكن الأمور واضحة في رأسي مثلما هي واضحة الآن. ربما يرجع الفضل لاكتشاف ما خفي عني آنذاك للكهرباء والركلات، ها، ها، ها... أراكم لأول مرة تضحكون معي، توقعت أنكم ستقدرون في نهاية المطاف روح النكتة التي أتمتع بها.

مع مرور الوقت، بدأت الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي، لكن منغصاً واحداً ظل ينخزني من حين إلى آخر، وربما سيثير عاصفة من الضحك إذا ذكرته لكم: إنها ابتسامة أبي سعدي التي قدمها لي ليلة العشاء الأخير معه، ما إن أغمض عيني، حتى أراه أمامي، وعلى أسارير وجهه مرسومة تلك الابتسامة. قد تسألونني كيف شكلها؟ من المستحيل وصفها، هي، باختصار، مثل كف دافئة ممدودة إليكم في ليلة شتاء بردها قارس. إذا لمستموها فلن يغادر دفؤها أجسادكم أبداً. اكتشفت أنني محاط بها من كل جانب، إذ راح أطفاله الثلاثة يبتسمون لي بنفس الطريقة، بل هم علّموا أطفاله الابتسام مثلهم، وزوجتي مضت تقلّد أم سعدي (التي هي ليست سوى ببعاء تردد ما يقوم به زوجها).

أصارحكم القول أنني كنت أحياناً أشكّ بعواطفه، إلى أن جاءت تلك الابتسامة. ربما كنت لا أشي به لو أنه قدّمها لي يوماً واحداً قبل ذلك الاجتماع المشؤوم. تشبه ابتسامته ثقة الطفل بأبيه الذي يحمله على صدره ويدور به في حديقة الحيوانات. إذ لن تنتاب الطفل، لحظة واحدة، فكرة أن أباه سيلقي به طعاماً للأسود أو الذئب، ها، ها، ها... ما الذي يحدث لو أن الأب حرك يديه دافعاً بطفله إلى أعلى، (ظاناً أن

ما يحمله كرة أو حجراً ثقيلاً)، صوب النمر؟ هل ستندesh النمر لتصرفه، فتلاعب الطفل المرعوب قليلاً حتى مجيء الأب لالتقاطه منها؟ ها، ها، ها... أو هل ستتزلزل الأرض آنذاك أو تنشق السماء، لمنعها من القيام بما جُبلت عليه؟ ربما لو رمى الأب ابنه إلى القردة فإنه لن يثير أي رد فعل، بل سيكون الطفل ممتناً لأبيه. هل هناك أظرف من القردة في هذا العالم؟ انتم ستقولون أنني مجنون. لكنني أؤكد لكن أن الكهرباء أعظم اكتشاف قام به الإنسان، إذ أنها تزيح الشحم المتجمد حول الدماغ، وتبعث الدماء إليه، ها، ها، ها...

عدت إلى بيتي ذلك المساء منهكاً. حلّ الصيف مبكراً تلك السنة، وعلى نخلة الحديقة الوحيدة حطّ لقلق جوال رحاله، وكانت رائحة الجوري والرازي تعبق في كل مكان. سافرت أم سعدي إلى أهلها الساكنين في الجنوب، لتبقى عندهم طيلة عطلة الأطفال الصيفية مع صغارها. قبل أن افتح باب الحديقة، أثار استغرابي الضوء المولع في غرفة نوم المرحوم المطلّة على الشارع. سألت زوجتي إن كان جيراننا قد رجعوا إلى مسكنهم فنفت ذلك. قضيت جزءاً طويلاً من الليل عاجزاً عن النوم، متقلّباً على فراشي، تواجهني النجوم المتألّئة من كل جانب. خرجت إلى الحديقة، فلاح لي المصباح ثانية، وعبرت قطعة سوداء ضخمة من جانبي. تكررت الحادثة مراراً، وأصبحت عاجزاً عن إداء عملي للأرق الذي ظل يلزمني. ألححتُ مرة على زوجتي أن تراقب معي الضوء في بيت جيراننا، لكننا فوجئنا بالظلام يعمّه. كان هنالك من يلعب معي "عسكر وحرامية"، ومضى يكررها كل ليلة.

عبرت يوماً، وأنا بين اليقظة والنوم، في ساعة متأخرة من الليل، الجدار الفاصل بين سطحي بيتينا. هبطتُ، في تأنٍ صوب غرفة النوم، وسط الظلمة المحيطة بي، يخترق بريق الضوء القادم منها الباب، لينشر رذاذاً على جدران الممر المؤدي إليها. دخلت إلى الحجرة، ففاجأني ضوء غريب قادماً من نار مشتعلة وسطها. حينما نظرتُ إلى الأرضية لم تلامس عيناى خشباً أو موقداً لها، كانت مولعة في الفراغ، مرتفعة حتى السقف، لكنها نار لا تحرق ما تلمسه، إذ برغم أنها تتصاعد من وسط الملابس والأفرشة والسرير والكراسي، فإن كل شيء بقي محافظاً على حالته. هناك في الزاوية اليمنى، جلس رجل على كرسي، شابكاً كفيّيه فوق حضنه ومطأطأً رأسه. ما أن اقتربتُ منه حتى رفع رأسه. هل يمكنكم أن تحزروا من يكون؟ ها هو يرسم لي ابتسامة مماثلة لتلك التي منحها إياي في آخر لقاء به، محمّلة بنفس المودة والحب، تخترقان دون توقف عيني؛ لا مشاعر عتاب، لا نظرات قاسية، لكن الوقت الذي تناولنا فيه ذلك العشاء اللذيذ قد جمد على حاله. نسيت ولدقائق ما جرى خلال الفترة الأخيرة، ذبت في عاطفة موازية لعاطفته نحوي، وكدت أعرض عليه الذهاب إلى المقهى، مثلما اعتدنا أن نفعل في تلك الأيام الخوالي. لكن من أين اجلب الكلمات وسط هذا العالم المدهش؟ وسط الخوف والقلق؟ بدلاً عن ذلك، بكيت بحرقّة طويلاً، وما أن ارتفع صياح الديك حتى راحت النار تتلاشى. غادر أبو سعدي الحجرة بهدوء، متجاهلاً إياي، لأجديني في قلب العتمة. حينما رجعتُ إلى سطح بيتي، كان السحر قد حل آنذاك.

أمسيت أسمع خطاه في الحديقة كل ليلة بعد أن ينام الجميع،

حيث أميّز سعلته الحادة المختنقة ودندنته بأغنية قديمة. أحياناً  
أطلّ على حديقته من أعلى الحائط الفاصل بيننا، فأراه يتجول  
فيها بشروء، أو يشتل أفلام الجوري، أو يسقي الثّيل والزهور،  
يرفع لي أحياناً رأسه مبتسماً، ثم يعود إلى عمله. جعل ظهوره  
المتواصل، حياتي، جحيماً في المدينة، وعبئاً لا يطاق، أفقدني  
وإلى الأبد القدرة على النوم، حتى جاء الفرج عندما رشّحتني  
الوزارة التي أعمل فيها لاحتلال منصب مدير ناحية نائية في  
الريف، فقبلت بعرضها فوراً. إذ برغم أنني لم أعش في الريف  
من قبل، وبرغم أن أطفالي سيعانون من هذا التغيير الجذري  
في حياتهم، لكنها فرصة ذهبية لقلب صفحة والبدء في أخرى  
جديدة. كل إنسان يخطأ، حتى الأنبياء يخطؤون، أليس كذلك؟  
وانتم أيضاً... ها، ها، ها.

كان نهاراً قائظاً، ملبّداً بغبار كثيف، حوّل الشمس إلى قرص  
منطفي، باهت، طيني اللون. انفتحت أبواب جهنّم على البشر  
بسعيها اللاهب إليهم دون توقف. أتلقّت حولي إلى الوجوه،  
فأراها مطلية بطبقة من مسحوق التراب الناعم، يتكاثف على  
الشفّتين، فوق الأنف، وحول العينين، ليجعل منها وجوه  
مهرّجين يدورون دون جدوى وسط سيزك كبير. جنّت إلى  
العاصمة صباح ذلك اليوم لحضور ملتقى واسع يضم الموظفين  
الكبار في الريف والضواحي النائية هدفه دراسة طرق ربط  
العاصمة بأطراف البلد الشاسعة. حضر سيّدي إلى قاعة  
الاجتماع، فرأيت له لأول مرة من بعيد، يشعّ من قامته المديدة  
نور ساطع. أصبح الجو قدسياً يبعث على الرهبة والاحترام  
حال دخوله القاعة. أصابني الذهول وأنا أتابع خطواته المتأنيّة  
صوب المنصة. وحينما مضى يتحدث بهدوءه ورزاقته

المألوّفين، أحسست أن رنين كلماته يخترق سمعي، ليصل إلى عروقي، فيبعث الرعشة في أوصالي. لاحت الوجوه حولي مغطاة بالشحوب والعرق، تتقلب الانفعالات على أساريرها مع تقلّب موضوعات خطاب سيّدي. انتقد المتقاعسين والمرتشين فتمنيت أن أكون جلّاداً، في تلك اللحظة لأقتصّ منهم جميعاً، تحدثت عن ضرورة تطوير الزراعة في بلادنا، فوددت أن أتحول إلى ثور مجنّح، يقلب الأرض برمشة عين، وحينما دعا إلى البناء، تمنيت أن أتحول إلى جنيّ، يخدم سيّدي في تحقيق أحلامه النيرة.

كانت الفترة السابقة التي قضيتها في الريف مرهقة كثيراً، فكل شيء في حاجة إلى إعادة تنظيم: الملفات المتكدسة، دفاتر الحسابات، كسل الموظفين وتقاعسهم، إضافة لمشاكل نقل أطفالي إلى مدارس جديدة وتعوّدهم على حياة الريف. أقسم لكم أنني اندفعت في عمل واسع لتحسين ظروف حياة الناس هنالك: بذلتُ جهوداً كبيرة لجلب مضخات ماء إضافية، أمرتُ بتنظيف السواقي وتعريضها، جلبتُ طبيّين للمنطقة، وسّعتُ بناية المدرسة... وكانت مكافأتي عظيمة: النوم العميق ليلاً بعد نهار عمل مضمّن...

حينما تركتُ القاعة، استقبلتني سماء نحاسية داكنة اللون، بدت لي واطئة كأنها تكاد تنطبق على الأرض، والهواء يقذفني بإبره الصغيرة الملتهبة دون توقف. رافقتني في الخروج زميلان قديمان، عرضا عليّ الذهاب معهما إلى البار فوافقت، عرّفاني بشخص آخر معهما:

أبو سعدي!

كان بار ليالي الهناء غاصاً برواده، تنتشر أضواؤه الخافتة ودوائر دخان السجائر غيمة كثيفة رمادية فوقهم، تعزل الستائر الذهبية اللون، الموشاة بنقوش غامقة، الخارج عن الداخل، ومكيفات الهواء فيه تجعلكم تنسون أن "جهنم" واقفة عند الباب. دار الحديث حول مجريات الملتقى في يومه الأول، وما ينتظرنا من نشاطات في اليومين اللاحقين. كنت ساهياً عن أحاديثهم. لعبت دور المنصت، المهتم كثيراً بأرائهم، وظلت عيناى تتنقلان بين زميلي متجنبه الوقوع على الرجل الثالث: أبي سعدي.

جرعت البيرة بسرعة، للتخفيف من ذلك التوتر الذي كنت تحته: لا تدخين طيلة النهار، الغبار والحرّ الخانقان، العطش الشديد المتواصل، اللقاء بأناس لا أعرفهم، وإضافة لذلك، على البقاء يومين آخرين في العاصمة. التقتُّ عن مضض حكاية رواها ذلك الـ"أبو سعدي": تحدث بأسى عن فقدانه صديقاً قُتل في حادث انقلاب سيارته على الطريق الخارجي. كان برفقته، أطفاله الأربعة وزوجته، الذين لم يُصَب أحد منهم بأيّ أذى، لكن موت الرجل بين ذراعي امرأته أدّى إلى فقدانها العقل بعد شهر واحد من الحادثة، فُنقِلت إلى المستشفى لتقيم فيها بقية حياتها، أما الأطفال فقد وُضِعوا في دار الأيتام. لا أدري كيف تسلّطت على ذهني "أم سعدي". إذ لم يكن سهلاً عليها رؤية زوجها، وعلى وجهه وجسده آثار الـ... انتابني خوف عليها وعلى أطفالها للدرجة التي لم أستطع مقاومة الرغبة في الذهاب إليهم للاطمئنان عليهم.

في الطريق اشتريت فاكهة وهدايا: لعبة طائرة لسعدي ودمية

لسميرة ومسدساً لسامي. ظل الغبار خارج السيارة يتساقط مثل الجراد الأصفر الصغير، فارشاً الزجاج والأرض والأشجار والوجوه والأضواء بلون شاحب، أشم رائحته النفاذة قادمة من بوابٍ عطشى لم تعرف طعم الماء منذ مئات السنوات. اشتعل الضوء الأحمر في السيارة تنبيهاً لي بنفاد البنزين، فانعطفتُ إلى أول محطة للوقود في الطريق. بعد أن ملأ العامل خزان البنزين، أخرجتُ له الصفيحة الفارغة التي طالما كنت أملاًها بالوقود عند سفري مسافات طويلة.

عندما وصلتُ إلى بيتهم، التّم حولي بعض الجيران سائلين عن حالي وحال عائلتي. أخبرني أحدهم أن عائلة أبي سعدي قد غادرت العاصمة إلى حيث يسكن أهل الزوجة، وأن البيت معروض للبيع. ودّعتهم وغادرت المكان. قبل ذهابي لمحت ضوء الغرفة العلوية مشتعلًا، وهذا ما جعل شغراً رأسي ينتصب وجلدي يكشّ. ازدادت ضربات قلبي اندفاعاً، انحبس الهواء في صدري، انبجست الدماء في عروقي بعنف. ذهبت إلى الفندق مباشرة، سعت للنوم، شربت زجاجة ويسكي بأكملها، لكن دون جدوى، فلقد ظل الأرق ملازماً إليّ. تملكني فضول شديد في الذهاب ثانية إلى بيت أبي سعدي، للتأكد من أن الضوء الذي رأيته حقيقة لا وهمًا. كانت الأشهر السابقة التي قضيتها في الريف فترة نقاهة شفيت خلالها من كل الأوهام التي حاصرته زمنًا طويلاً، ومن الضروري التأكد من شفائي أو جنوني!

وصلت إلى هناك في ساعة متأخرة من الليل، دفعتُ باب الحديقة، فانفتح بسهولة، كان اللون التبنّي للبيت، وبقع الضوء

الخافقة على واجهته، وعويل العاصفة، والسماء الحمراء،  
تشعرنني بأنني في حلم لا بداية له ولا نهاية، وإنني منساق  
دون إرادتي لتأدية دور مرسوم لي مسبقاً فيه. قابلني ظلام  
البيت الدامس، فتنفست الصعداء آنذاك. قبل أن أخطو عائداً  
نحو باب الحديقة للخروج منها، لمحْتُ رجلاً ينظر من أعلى  
إليّ. كان أبو سعدي مدلياً برأسه من النافذة، ووجهه متجه  
كثجم السماء، يطفو الاشمنزاز على وجهه منّي، وعيناه  
مثبتتان عليّ. كانت أضواء الشارع كافية لرؤيته بوضوح.  
لعنته، شتمته مراراً، صرخت به بأعلى صوتي: "سأحرقك أيها  
الـ...".

لا أذكر بالضبط كيف وجدت نفسي حاملاً صفيحة البنزين  
بكلتا يديّ لأسكب منها على الباب، ثم أكسر الزجاج فأرمي  
شيئاً من الزيت على الأرضية المعتمة، وبقايا الأثاث المتناثر  
عليها، ولم احتج إلى أكثر من قدحة واحدة من ولأعتي. آنذاك  
راحت الأضواء تتكاثر في الجانب الآخر من الشارع، واطلّت  
رؤوس من النوافذ والبلكونات، تراقب ما يجري. ما إن  
ارتفعت النار حتى انطلقت صرخات الهلع وأصوات السيارات،  
ووسط ذلك اللهب اختفى وجه أبي سعدي وإلى الأبد، وغمرني  
هدوء عميق لم أشعر بمثله من قبل طيلة حياتي، هدوء جعلني  
أسعد إنسان على وجه الأرض آنذاك...

ما رأيكم؟ أعجبتكم حكايتي؟ لا؟ لا يهم. عندي أخرى  
ستحبونها حتماً. لكنهم قادمون، ألا تسمعون وقع أحذيتهم؟  
موعد الأدوية قد حان، يجب أن تختفوا وإلا سأعاقب. تعالوا  
غدا إذا أحببتهم. عليكم أن تهربوا بسرعة. هناك ثقب في الجدار،

ألا ترونه؟ ماذا؟ لا يسعكم؟ هه، إنه يكفي جيشاً بأكمله. كل يوم  
يخرج منه قطيع طويل من النمل الأسود، طويل جداً، إنه  
مملكتهم. ستحلّون ضيوفاً على مَلِكْتهم...اركضوا الآن،  
اركضوا رجاءً، اركضوا، ارك...

لندن، صيف 1987



## القداح



ها هو يتسلل عبر النافذة دون ضجيج. أسمع حفيف وشاحه الأبيض الطويل لامساً البلاط. يكركر في ضحكة، خافتة، متقطعة. يمشي على رؤوس أصابع قدميه العاريتين. يمضي إلى سرير عصام، يجلس فوقه مسنداً ظهره إلى الجدار. يسقط الوشاح عن رأسه، يظهر شعره الأبيض، المنسدل حتى كتفيه، فضة تلتمع تحت ضياء القمر المبعوث في هواء الحجرة. أغمض عيني قليلاً، صورته مشوشة أمامي. أتنفس رائحته الأشنية، الرطبة، قادمة من جدران سرداب عميق، مظلم، مغلق منذ ألف عام.

"اعلم أنك مستيقظ، لا حاجة لخداعي جئت أخلصك مما أنت فيه من بلاء". تتناثر كلماته في الفضاء، يحملها صوت حجري بارد، يتفكك فوق الجدران إلى رذاذ من الهمس الناعم، الرتيب، فتتشعر له روعي. ينفلت قلبي بنبض متدافع عنيف. "ألا تجد نفسك ثقيلاً على الآخرين؟ ابنك يرقد معك تاركاً مسراته، وزوجتك منشغلة بك بدلاً من صغارك". أمدّ يدي إلى الكوميدو المجاور لي، أفتح علبة حبوب تنشيط القلب. آخذ واحدة منها. أضعها تحت لساني، يتلاشى الخفقان تدريجياً. أفتح عيني، فلا أجده في الحجرة. تأتيني رائحة القداح المُنفّث في حديقة الدار، عبق، منعشة. أسمع صرير الجنادب، الدؤوب، منها. تأسرني رغبة في الخروج إليها. أنهض ببطء، أرمي خطوة، فيعاودني دوار. ألقهقر إلى فراشي. أتلغع بغطائي، أسمع صوت سناء: "عصفوري من كفي طار..." كانت تنثر نشيدها في الحديقة،

حينما اخترق ضوء برّاق نافذة حجرتي، فبعثر دوائر ومثلثات راقصة، قرمزية، على جدرانها. "تقول ابتسام: "أسناني الجديدة اكبر من أسنان الحمار. أسنانها أكبر من أسناني، مو صحيح؟" أربت على كتفها، أعابت شعرها، أقبل دموعها: "أنت احلى وأعقل منها...".

متى أشفى لأعلمهما الكتابة الجميلة وأجعلهما أفضل الطالبات؟ ألححت على نعيمة بالتوقف عن الحمل بعد عصام وثريا، لكنها لم تصغ لي، فرزقنا بأربع بنات أخريات. ترك عصام دراسته مبكراً، اشتغل كاتب واردة وصادرة بعد إحالتي على التقاعد. عمره اليوم عشرون عاماً، ومن يراه يظنه كهلاً في الأربعين. ما الذي سيقوله حينما يجد نفسه وحيداً، مع أمه التي لا تكف عن الشكوى، وأخواته اللواتي يلزمهن الكثير من الجهد والمال حتى يكبرن: "هذا جناه عليّ أبي!"

عصام، رغم تجهم وجهه وصمته المتواصل، له قلب من ذهب. دؤوب على الاعتناء بأمه وأخواته. ألححت عليه بالخروج مع أصدقائه. قلت له وهو يعطيني كأس الماء: "أتعبتك كثيراً معي". فراح يبكي كطفل مقبلاً يديّ. "يا إلهي، لو أنني لم أخلف سواه، لو أنني لم أتزوج في الأربعين، لو أنني..." تراكمت الأمراض عليّ واحداً تلو الآخر. عجز في القلب، في الكليتين، في الرئتين، في الساقين. عجز، عجز، عجز. تسكن عشرة أدوية جنبي، أقربهن هذه الحبوب لتنشيط القلب. كل ما أحتاج إليه خمسة أعوام، أحقق خلالها حلمي القديم، بتنفيذ مشروع، يمنحني ثروة، تكفي عائلتي من بعدي، ويعود عصام إلى دراسته.

اكتشف الآن سبب إخفاق تجاربي السابقة، فشل مشروع  
المخبزة، التي بنيتها في منطقة زراعية نائية، لأنني أردت  
إدخال خبز الأفران إلى الريف، حيث كل النساء يخبزن في  
البيوت. عملت المستحيل لبيعه، طليته بالبيض، خلطت معه  
أعشاباً زكية. زدت من وزنه، أنقصت من سعره، لكن أسماك  
النهر وحدها أقبلت على أكله، بعد تكدسه وتعفنه داخل  
المخبزة. جلت كثيراً في سيارة الجيب بين تلك القرى حاملاً  
جرساً كبيراً. يستقبلني أطفالها الحفاة، جذلين متدافعين حولي.  
أوزع الخبز الساخن عليهم، فتبتهج أعينهم.

ينتابني سعال عنيف، تتدافع أنفاسي إلى أعلى: دخان حريق  
يتأجج في صدري، قرقرة لا أول لها ولا آخر، تخنقني أصابع  
مخفية في الهواء. ها هو يدخل من باب الحجرة، يقابله القمر  
وجهاً لوجه. أرى بوضوح ملامحه، أنفه المدبب، وجهه  
الطويل النحيف، أسنانه الطويلة البارزة وسط شففتين غليظتين.  
يهمس بصوت بارد مرتعش: "سأعطيك ما تحتاج إليه من  
دواء. هل تريد قليلاً من الماء؟" يقدم لي زجاجة داكنة الصفرة،  
لكنني أظل ساكناً، واضعاً يديّ على صدري.

ينقطع السعال، افتح عينيّ، فلا أرى له أثراً. أتنفس بعمق.  
تعاودني صورة أبي، مرتدياً ثياباً بيضاء، "كيف تمسّط شعرك؟  
ألا تخجل من نفسك؟ سأنزع عنك كل شعرة أيها الكلب". تبدل  
الزمان اليوم. شاهدت وفاء مرة تسرح شعرها الطويل ببطء  
أمام المرأة، "شعري جميل بابا؟". أضحك قليلاً: "أنت أجمل  
فتاة في العالم". تعلق وجهها حمرة. تقبلني، تركض مكررة  
إلى حجرتها.

يزورنا أصدقاء عصام أحياناً، أقدم لهم الشاي، ألعب معهم الشطرنج. أحدثهم عن طرائف قديمة مرّت بي. يجاملني أحدهم: "نحن نأتي للقائك أكثر من هذا العجوز المتشائم". يعرف عصام كيف يمنح حبه لمن حوله، دون كلمات. كم أنا فخور به. لِمَ أكون سبباً في بقاءه موظفاً صغيراً؟ عليّ أن أكافح دون هوادة. ما زال عقلي سليماً، وما زالت قوى روحي مندفعة للعمل. تطور الطب اليوم، فبالأدوية والإرادة القوية يمكن إبعاد الموت سنوات أخرى.

يكمن فشلي في سببين: سرعة اتخاذ القرارات، والثقة العمياء بالآخرين. حلّ المرض بي عندما فشل ذلك المشروع العظيم، بإصلاح وزراعة أرض خراب، أهملها صاحبها بعد تحوله إلى التجارة. هناك قرية قريبة منها، يعيش أهلها في بؤس مدقع. ذهبت إليهم. التقيت بكبيرهم، رجل ورع يستدر العطف والرحمة من الآخرين. ليس في بيته سوى التراب، والذباب، وحصيرة عتيقة، وجرّتي ماء. عرضت عليه العمل هو وأبناء قريته، مقابل نصف المحصول، وأدفع لهم أجراً في العام الأول.

لم تكن الأرض سوى كثران مغطاة بالملح، موشاة بالشوك والعاقول. كشطت المكائن عنها ما عليها، ثم جعلتها سطحاً أملس مستوياً.

جددتُ حَفَر جدول يوصل الماء من الفرات إليها، سككتُ سواقي فيها، زرعتها برسيمياً على موسمين. دعوتُ المالك يوماً، انبهرت عيناه أمام الخضرة الممتدة حتى الأفق. قال لي مغتبطاً: " ما أراه ليس إلّا عمل ساحر".

زرعت السنة التالية، شعيراً. عمّ الفرح القرية بتحسن حال ساكنيها، ثم جاء يوم الحصاد، فذهبت صباحاً للبدء به، لكن لم تحصد عيناى سوى أرض سوداء. "ما الذي جرى يا إلهي؟" سألت كبيرهم. أجابني بمكر واضح: "الأطفال لعبوا بالنار، ووقعت شرارة في الحقل ثم احترق كله".

أسمع صوتاً هائلاً، ألتفت يمينا، فأراه مستلقياً على سرير عصام.

"أنظن انك ستنجح في كسب ثقة الآخرين، بعد استلافك الكثير منهم؟"

"ساؤفي ديوني. أنت لا تعرف كم أنا عنيد."

"ما جدوى عنادك؟ أنت لست إلا عجوزاً موشكاً على... وأنا جئت لمساعدتك."

"لديّ من الأدوية ما يكفي لردعك."

"ألا تعرف أنها ترهق عائلتك؟ أنت أغرقتهم في الديون بمشاريعك الفاشلة."

"عملت ذلك من أجلهم."

"أنت تخزّف."

"لقد دخلتُ الحلبة، ولا مجال للانسحاب منها."

أخذ حبة، فيتلاشى الدوار، ويختفي الغريب، وسط هواء الحجرة وضياء القمر.

أستيقظ فزعاً على حلم قصير: تجلس أُمي على حصيرة مفروشة في الطارمة، أقف قريباً من المجاز حاملاً طيارة

ورقية، يفصلني عنها الحوش بطابوقه الأصفر المتوهج. تمشّط شعرها بمشط خشبي. تدعوني بإلحاح إليها. تجذبني رغبتان: الركض إلى الشارع، أو الذهاب عندها، للجلوس في حضنها، للاحتماء من مجهول يطاردني. أرمي ثلاث خطوات صوبها. ما زالت تدعوني بلهفة. أمعن النظر إليها، يتحول شعرها الناعم الأسود إلى أبيض، خشن الملمس، بغيض الشكل. يصبح وجهها شبيهاً بوجه الغريب. أسعى للهرب منها، شلل يقيد ساقي. أصرخ مستغيثاً. يضع صوتي في حنجرتي. لا أسمع إلا ضحكات الغريب المججلة.

ها هو قدّامي، جالساً فوق خزانة الملابس، مدلياً ساقيه حتى منتصفها، لكن لا أثر لثقله عليها. تلتمع عيناه المسلطتان عليّ؟

"تركتك تغفو دون إزعاج."

"كم الساعة الآن؟"

"ما جدوى أن تسأل عن الوقت؟ الزمن للأحياء فقط."

"أنا حي كالآخرين.. وسأشفى قريباً."

"ألا تجد كيف انقطعت عنك زوجتك؟"

"لكنها تأتي من وقت لآخر."

"الكل يعرف أنك راحل قريباً."

"أنت تكذب."

تنقضّ عليّ نوبة جديدة، ألم حاد يضغط على صدري، يعلكني بين فكيه، كفّ حديدية تقبض على قلبي، تعصره دون رحمة. شرر يقدح حولي. تتراءى الحجرة لي كرة معدنية

ساخنة، تعجنني في جوفها، تدور سريعاً، تتقاطع أصوات غليظة وناعمة في أذني. أغوص في لج نهر عميق، تعابت سطحه سوّيرات الماء. أمُدُّ يدي إلى الكوميدو، لكنه ينأى عني شيئاً فشيئاً. يحضر أبي، أمي، إخوتي، الذين رحلوا واحداً واحداً. تضاء حولي شموع كثيرة. أصرخ أقصى ما أستطيع، لكن الصوت يغوص معي داخل فمي، يندفع خرير المياه في أحشائي. أنقلب فوق الأغطية. طير ذبيح ملقى وحيداً في العراء. لو أستطيع الوصول إلى الكوميدو؟ أدفع ذراعي نحوه، تتقلص أصابعي ماسكة قبضة هواء، هواء، هواء...

أدفع ثانية، الثالثة، رابعة...

خيوط رفيعة يفصلني عن بواكير فجر، قد لا تلمحه أبداً عيني.

لو كان عصام معي...

يغمرنني الماء، تجرني خيوطه إلى الأعماق، لكن يديّ تظلان ممدودتين إلى أعلى، تمسكان حبلاً يتفتت إلى رماد كل لحظة. أصرُّ على التشبث به. ينفتح لي قبو مظلم، فألجه. أجدني وسط رواق ضيق، طويل، ينتهي إلى فجوة، ينفذ منها شعاع الشمس، برّاقاً، متوهجاً. أخطو مترنحاً، يميناً ويساراً، مصطدماً بجدرانه. خطوة أخرى، أتعثّر. يسيل الدم من أنفي. أنهض ثانية، أتقدم خطوة. أكدم حجراً تحت قدمي. أنزلق ساقطاً على وجهي، أستقبل الأرض بيديّ. تتخدش ذراعي. أزحف، أزحف على ركبتيّ، تخور ساقي. أمسك بكِلاب مغروز في الجدار قريباً من رأسي، أدفع جسدي خطوة. ها هي بقعة الضوء تكبر. لهائي يتصاعد كصفير قطار مدوّ.

فجأة يتحول جسدي إلى بالون خفيف، تدفعه ريح رقيقة،  
تصغر المسافة بيني وبين شعاع الشمس. فرح يكتنفني. أمد  
ذراعي. هأنذا امسك بعلبة الدواء، أعرف الطريق إلى حُبِّيَّاتها.  
أضع واحدة في فمي. أفتح عيني، فالبحر الغريب واقفاً إلى  
جواني، يظهر ضياء القمر فرحاً جنونياً وقسوة على عينيه  
الجاحظيتين، فأشبح عنه ناظري. تخفت الأصوات رويداً  
رويداً. أهبط ببطء شديد من فوضى الأشياء إلى سكون الحجرة  
المزدانة بوهج رذاذ ضياء القمر الشفاف. يغمرني عبير القَدَّاح.  
استرجع أنفاسي. أمسح وجهي المبتل بالعرق. ألتفت صوب  
سرير عصام، حيث يجلس مرافقي، تعلو وجهه إمارات  
الضجر والخيبة. أصدق فيه متحدياً، جولة أخرى أكسبها معه.

"أنت تضيع وقتي سدى، برغم أنك ستخسر حتماً معي."

"حينما أحقق ما أبتغيه، سأتي بنفسي إليك طالباً الرحيل."

"ما تريد تحقيقه هو المستحيل."

"أنا رب أسرة، وعليّ مسؤوليات يلزمني إنجازها."

"ألم تكفك كل هذه الأعوام التي عشتها؟"

"أنت جئتني لحظة امتلاكي الخبرة. الآن هي البداية حقاً."

"هراء."

يغادر الحجرة ساخطاً. أضع علبة حبوب تنشيط القلب تحت  
مخدتي، قريباً من يدي اليمنى. لن أخدع مرة أخرى.

\* \* \*

يحلّ السَحَرُ أخيراً، تتغلغل بشائر الفجر إلى حجرتي،  
ينفصل الخيط الأسود عن الأبيض، تتلملم الكائنات حولي.  
ألفُ أصرة تشدني إليها. يمتد خلف النافذة الآس الأخضر، لو  
استطعت مدّ يدي إليه، لأمسكت بأوراقه. تتلملم شجرة التوت  
هي الأخرى بعصافيرها. هكذا، وبضربة واحدة راح الظلام  
يتفتت. يعلو صوت المؤذن هادراً نصف ساعة أخرى، وينفتح  
الفجر على الدنيا، معلناً نهائياً آخر أحياء، نهائياً آخر أشربه.  
نهائياً آخر...

ها هي المعجزة تمسني، قوى غامضة تتسرب في عروقي،  
يختفي النشيج عن أنفاسي، يتزحزح الحديد عن صدري. أنهض  
من فراشي متردداً، لا دوار يحاصرني. أقف على رجلي، لا  
رعشة تهزهما. أخطو نحو النافذة، أمسك بطرفها. أطلع إلى  
الحديقة الصغيرة، تطل شجرة التوت أمامي بأغصانها اليابسة.  
أذرع مرفوعة صوب السماء. أنقل بصري إليها، تطالعني  
نجمة الصباح، معلقة وحدها بسمت القبة الغامضة الزرقاء،  
ثرياً يتأجج ضياؤها، وسط سكون الكون وصفائه. يداعب  
وجهي نسيم عذب، مثقل بشذى القدّاح الآتي من شجرة  
البرتقال. أميّز، برغم بقايا العتمة، لون الحياة زهرها الأبيض  
عن ورقها. ها أنذا اجني ثمار معركتي مع الغريب. تدبّ الحياة  
من جديد في أعماقي، مثلما ستدبّ في شجرة التوت يوماً.  
فجأة، تطقّ الأزهار على فروعها. يتضوع أريجها. تنمو  
أوراقها. من يصدق أنّ خشباً يابساً تعود إليه الحياة ثانية.

تتصاعد رغبات في نفسي، بالرقص، بالغناء، بالركض. كأن  
رحلة الألم الطويلة كابوس بغيض مضى دون رجعة. أندفع

نحو الحمام. أذرع خفية تحملني برفق، تغدو خطواتي طيراناً  
سحرياً. أغتسل، أحلق لحيّتي، أتعطّر، ارتدي أجمل ثيابي،  
أمعن النظر في المرآة. ألتقي بوجه معافى، كأن لم يعرف  
المرض يوماً. أذهب إلى المطبخ، أضع غلاية الشاي على  
النار. أعدّ الفطور للجميع، ستفاجئهم هيئتي صباحاً.

أعود إلى حجرتي، أخرج من جرّار الكوميدو ملف  
المشروع الجديد: حقل واسع مسيّج لتربية الأبقار، مزوّد  
بأحدث الآلات وأرقاها. تبني بجانبه زرائب صحية على شكل  
قاطرة.

يصلني من بعيد صوت قطار، قرقرعات، رتيبة، منتظمة.  
سأبني مستودعاً لخزن العلف، وورشة صغيرة لذبح الأبقار.  
يقترّب القطار أكثر فأكثر مني.  
هناك مقصورة تحتوي على ثلاث ثلاثيات كبيرة لخزن  
اللحم فيها.

تزداد ضربات القطار وضوحاً.  
ومعها ناقلة شحن مبرّدة.  
ترتفع نبضات القطار عالياً.  
عليّ أن أقنع تاجراً بتمويل هذا المشروع.  
تضج الحجرة بدوي القطار. تهتز كنباض حلزوني.  
لا مجال للخسارة هذه المرّة، تحسبت لكل الطوارئ  
والاحتمالات.

يخترق الدويّ الهادر سمعي. يمرق القطار إلى قلبي. يهتز جسدي بعنف، رعشات متواصلة. أنهار على سريري. ينفجر الألم بركاناً في صدري. تدور الحجرة بي سريعاً، سريعاً. أتشبث بسريري. يتراءى لي جبل رمليّ، تعصف به ريح عارمة، فتمحوه برمشة عين. يغادرني القطار رويداً رويداً. يتلاشى صوته في الفضاء. ها هي العصافير تندفع بصليلها المتواصل، العذب، احتفاءً بحلول فجر جديد.

أفتح عينيّ، فأجده أمامي، يعلو محياه الرضا والغبطة. أفتح علبة الدواء، أقلبها على راحة يدي، أمسك خواءً. تنفلت العلبة من بين أصابعي، أشعر بسقوط عبّ ثقيل، ثقيل، ثقيل عني. أسمع صوته بارداً، وقوراً، مطمئناً:

"عليك الآن أن ترافقني."

"إلى أين؟"

"سأخذك إلى مدينة لا تغيب عن مسائها شمس حنون."

"ألا تمهلي لأعدّ متاع السفر؟"

"أعددت كل شيء."

"أريد أن أرى عائلتي."

"ستزورهم متى تشاء من بعد."

"أستطيع رؤية الفجر؟"

"اذهب."

أحمل جسدي بعسر، اتكئ، على الكوميدو، خطوة، خطوتين. أتشبث بطرف النافذة. ترتعش أصابعي، تهتز

أصابعي، تهتز ركبتاي. خدر يتصاعد من قدمي. خطوة أخرى:  
هأنذا قبالة سماء تتقطر زرقاة بللورية. يختلط اللازورد في  
الأفق بنثار برتقالي متوهج، تحجبه شجرة التوت، لكنني المحه  
عبر فجوات سيقانها العارية.

يحلّ الفجر أخيراً، فتهتز له العصافير أكثر فأكثر، أمدّ يدي  
إلى الآس، اقطف وريقات منه. أعصره، أشم شذاه العبق  
مختلطاً بعطر القدّاح.

أتنفس بعمق: شهيقاً، زفيراً، شهيقاً زفيراً، شهيد ...

يتواصل نشيج العصافير قوياً دؤوباً. أسمع سناء تردد النشيد  
معها.

أمدّ ذراعي لأقبض على العطر، النشيج، اللون، السماء،  
الفجر. أفتح يدي، فإراهما تتقطران ندئ متوهجاً بالضياء  
البرتقالي، لكأني أدوب في ما حولي. التفت ورائي...

غيمة أرجوانية تقترب مني، تغمرني.

غيمة أرجوانية، غيمة أرجوا...

غيمة، غيمة، غيب، غيب...

غ ، غ ، غ .....

لندن 1986

## النرد



كانوا لطفاء معي، أعطاني أحدهم علبه سجائره...

وأنا أدفع باب المقهى، يستقبلني دفء عذب، رغم تساقط المطر خلفي، رذاذاً بارداً، متقطعاً. يتصاعد الضجيج مختلطاً بغيوم الدخان الزرقاء، حيث الكل منغمر بنشوة دفء الحديث الذي لا ينقطع. تتحرك الأفواه، تضيق الأعين وتتسع، تهتز الرؤوس. أرمي خطوة أخرى، باحثاً عن كرسي شاغر، لكن دوامة الهدير تشلني، فأظل أتابعها مبهوراً، مختنقاً بفرح غريب...

تدفعني رغبة في الحديث. التفت حولي باحثاً عن رجل جالس وحده، لعلني أستعيد لساني معه. تنعكس الأضواء على صفحتي عيني، فأشعر بحرقه، لكنني أظل محدّقاً فيها. ينفجر أمامي فضاء كرات ملونة، براقه. يرتفع جسدي معها إلى أعلى، يدور في فلكها، يختفي هدير الأصوات العنيف في المقهى، يحل محله طنين الصمت في أذني...

كان الصمت عميقاً، حينما فتحت عيني على جدار أزرق، برّاق، وبطّانية خضراء تغطي نصف جسدي. سريري الأبيض، يلوح طرف مسنده فوق قدمي، كأنه حدوة حصان عملاق. لمست المخدة المبللة تحت رأسي، وأنا افتش في الذاكرة عن سر وصولي إلى تلك الغرفة. دُفع الباب ببطء، دخل طبيب، وممرضة تضع فراشة فوق شعرها. سألني من خلف نظارتيه الطبيّتين: "كيف حالك اليوم؟" تدافعت الكلمات

من حنجرتي أسناناً مهشمة، وسال اللعاب غزيراً من طرفي شفتي. ربت على كتفي برفق: "ستسترجع النطق قريباً..." سأل الممرضة دون أن يلتفت إليها: "حرارته طبيعية"؟ ثم أضاف قبل أن يتركني، "قدموا له حساء وحليباً فقط. غداً حضروه صباحاً لوجبة العلاج".

يجلس فجأة، قبالي رجل على كرسي محاذ لعمود في وسط الصالة، وجه شاحب غير حليق، بجسد ناحل، وملابس رثة، تذكرني ملامحه بوجهي الذي لاقيته بعد أيام لا أعرف عددها في المستشفى، على مرآة معلقة في غرفة المرافق. لربما يكون وهماً صنعته مخيلتي. أمعن النظر فيه ثانية، رغم مرور الناس المتواصل بيننا. تلتقي عيناى بعيني. يرسم ابتسامة ضئيلة لي، ثم يدير ناظريه صوب الشارع، عبر زجاج المقهى الملاصق للرصيف. اكتشف أن ندبة محفورة على خده الأيسر، ألمس وجهي، فلا اعثر على أثر مثله. يحتسي الآن زجاجة مشروب أصفر، رشفة تليها أخرى، يعبّ خلالها أنفاساً من سيجارته.

تراودني رغبة قوية في التحدث معه. أنهض من مكاني. لكن سؤالاً يجول في خاطري: عمّاذا أثرثر معه؟.. افكر بالكلاب، فصائلها المختلفة، وكل فصيل وفوائده... يندس كلب ذئبي بين مصراعي باب المقهى، فيندفع باستقامة مطأطأ رأسه قليلاً وسط الحشد. يقف جنبي، يفتح شذقيه عن أنياب ملتمة، يقترب خطوة، وجهي يصبح قريباً من رأسه، أنكمش على نفسي، التصق بالجدار، أسمع زمجرته المخيفة، فيخفق قلبي بعنف.

أردد ما قاله الطبيب مراراً: "عليك ألا تصدق كل ما تقع

عليه عيناك. تأكد أن ما تراه ممكن وقوعه"... يتلاشى الكلب وسط الدخان. تظهر المقهى بروادها الموزعين على تخوتها وكراسيها، وهم يواصلون الحديث بإيقاع أقوى، يصلني الهدير كماء يغلي في قدر كبيرة.

التفت إلى الرجل الجالس قدامي، ها هو الآن يتطلع إليّ منتظراً أن أبادر في الذهاب إليه. أحرك رأسي مبتسماً، فيرد سلامي بهمهمة من شفتيه. أفكر بالورود: القرنفل، والياسمين، والجوري... ساق وردة الجوري مغطاة بأشواك كأنها مخالب قط. يعاودني ذلك الحلم، حين ينقلب الرجال حولي إلى قطط كبيرة. يوجّه لي أصغرهم قبضته المسننة، يعصر رقبتني مولجاً أظفاره في عروقي، أختنق، أحرك ذراعي، فيمسكهما الآخرون، يسيل اللعاب من فمي غزيراً. أتلصص ماء لزجاً يندلق ببطء على رقبتني. قبل أن يغلقوا الباب يغمرني الظلام، ألمح لونه القرمزي المتوهج...

قال الطبيب لي: لقد بذلنا كل ما في وسعنا لتسترجع وعيك. لكن الشفاء يعتمد عليك أيضاً. ابذل أقصى جهدك كي تتخلص من هلاوسك. سألته: والكوابيس؟ أجابني: حالتك معقدة.. كان أبوك قاسياً معك عند الطفولة؟

يتصاعد الدخان إلى أعلى من مئات السجائر المولعة داخل المقهى، خيط رمادية تتداخل مع بعضها، تضربها أضواء المصابيح النيونية، فتحولها إلى سحب أزرق كثيف. يغدو الناس أشباحاً مغلفة بالدخان. يظهر لي رجل ملقى في حجرة مظلمة، يجبر سقفها الواقف على حني ظهره. طولها لا يزيد عن طول سرير. يشم رائحة عطنة. تدب فوق جسده

الصراصير بلمسها اللزج، يعابثها بأصابعه. زمن لزج يمر دون حدود كأنه دائرة مغلقة. لا تلامس عيناه سوى ليل دائم، وصمت يقطعه من وقت لآخر صراخ مدوّ. ينتابه فرح لالتقاطه إشارة من كائن حي آخر في مكان آخر. لكم تمضّيه العزلة تلك رغم آلام جسده، رغم البرد المنزلق إلى أحشائه. يتقن مشي القرد. يعوي، ينبج، يموء، يثغو. يبحث في أرجاء الحجرة عن حشرة يعبث بها. رأسه كرة فارغة تسبح فيها فقاعات الهواء. يصرّ الباب في لحظة. يناديه رجل يمسك ضحكة في فمه بصوت مهدّد، فيمضي إليه، ما أن يصل الباب حتى تغمر عينيه أضواء الرواق الشاحبة. ينفجر طنين في رأسه، يرفع يديه إلى أعلى وجهه خوفاً من الضياء الحارق، ومن صفعات الرجلين الواقفين عند الباب، لكن فرحاً يمسّه وهو يستعيد الخيط الذي قُطِعَ دهنراً مع الآخرين...

قال الطبيب لي: الشيزوفرينيا مرض العصر، رغم أن الوراثة تلعب دوراً كبيراً... ألم يُصَبَّ أحد من عائلتك؟

يكمل نظيري زجاجته، ها هو يطالعني بنظرات زائغة. تنتابه الرغبة نفسها في التحدث معي. كم سأكون سعيداً لو شاركت هذا الجمع الثرثرة. لو أنني ألقيت فقاعات إلى أعلى. كم أشعر بعاطفة لكل هؤلاء الذين يصنعون هذا الدفء المتواصل. سأحدثه عن المشروبات الغازية، كيف تُنظّف الزجاجات وتعبّأ أوتوماتيكياً. أحس باندفاع أنفاسي، بضيق يحاصرني. أتذكر حلماء آخر: حجرة واسعة تتدلى ثريا من وسط سقفها، ويجلس رجل خلف مكتبه. يدق على زر بجانبه، يدخل أربعة عمالقة، يحمل أحدهم زجاجة. يطلب مني خلع ملابسني، أتردد قليلاً. يلمس نظارتيه، فيصعقني اهتزاز عنيف

وطنين في أذني. حين التفت إلى الوراء، يستقبل وجهي فقاعات  
اللهب المحرق. يجذبني الأربعة، ينزع أحدهم بنطالي، يلوي  
آخر ذراعي إلى ذراعي الآخر، يلقيني ثالث أرضاً. يندفع في  
لحظة لهيب حاد إلى أحشائي، ثم تدور الحجرة بي. أتقيأ،  
أعرق، أنزف، أصرخ، حتى تتلاشى الأشياء...

قال الطبيب: سيأتي اليوم أقرباؤك لمرافقتك. استرجاعك  
للنطق معجزة حقيقية.

قالت الممرضة: تبدو أنيقاً ببدلتك هذه. لأقربائك ذوق في  
اختيار الملابس.

قال الطبيب ضاحكاً: انظري إليه كيف حلق وجهه ومشط  
شعره بعناية.

يقلب جاري علبة الكبريت باحثاً عن حظه. لم لا أشاركه  
اللعبة، أو ألعب معه بالنرد الذي أعطاني إياه مرافقي قبل  
هبوطي من السيارة. أخرجه من جيبي.

أقذف به: بنج.

ثانية: شيش.

ثالثة: بنج.

يلتفت صوبي، يضحك معي بخجل، يرجع إلى لعبته منكباً  
عليها، منفصلاً عن المقهى وروادها. أتذكر رسومي في  
المستشفى. كانت أصابعي تكرر شكلاً واحداً: مروحة سقفية،  
أجنحتها طويلة، ينتهي كل منها بيد تُقبَّت راحتها، والثقب على  
هيئة عين قتيل. يبتسم الطبيب حين يربت على كتفي: ستصبح  
رساماً سريالياً عظيماً.

أرفع رأسي قليلاً، ألمح مثيلي يحرك ذراعيه في الهواء،  
راسماً خطوطاً منحنية، كأنه مايسترو يقود أمواج الضجيج  
المتدافع حولنا، لِمَ لا أتحدث معه عن الرياضة؟ عن لعبة  
الجمناستك أو تسلق الجبال؟ يمس بصري المروحة المعلقة  
وسط السقف، منزوعة عنها أجنحتها، يتدلى منها حبل غليظ  
إلى الأرض، يندفع الحبل فجأة إلى أعلى، ساحباً معه رجلاً  
عارياً، من رسغي ذراعيه المعقوفين إلى ظهره. أتلفت حولي  
باحثاً عمّن يساعدني في إنقاذه، فاجد الكل منشغلاً بالحديث  
المتواصل، الدافئ، الدافئ... قال الطبيب لي... أمسك الطاولة  
من طرفيها. تدور المقهى مرّات لا عدّ لها، مثلما دارت بي  
الجدران في المستشفى التي نُقلتُ إليها...

كانت الحجرة صغيرة وأنيقة، تنتظم صفوف الزجاجات  
الملونة فيها على رفوف دولا ب حديدي أبيض، مغطى بزجاج  
شفاف، ووضعت باقة ورد فوقه. أمامي سرير ضيق، مكسو  
فراشه بمشعّم بين. يشير الطبيب مدمداً بكلمات غامضة.  
أرجع خطوة إلى الخلف. تمسكني أذرع قوية لرجال يضعون  
على رؤوسهم طرابيش زرقاء. أقهقه لمشهدهم. أبكي. أصرخ  
بهم دون كلمات: لست مريضاً، اتركوني. أعض ذراع أحدهم،  
لكن الأصابع الحديدية ترميني على السرير. تلتف حولي أفعى،  
فتشل ذراعي، ويمسك آخر ساقي. يضع أحدهم في فمي فلينة  
تعبق منها رائحة الكحول الطبي. ألمح الطبيب حاملاً حدوة  
حصان. يثبّت طرفيها على صدغي...و...ززرززرززرز...  
ينفجر المصباح الدائري فوق عيني، يتفتت إلى شلال دافئة  
مياهه، يتبدل لونه: اخضر، أزرق، أرجوانياً، ثم ظلاماً  
مطلقاً...

أنفت دخاني إلى أعلى فرحاً، ينفث جاري، ينفث الجميع،  
تنفث القوارير. رنين يصلني، همس، وشوشة، ضحكات. يمر  
الناس يساراً ويميناً خلف زجاج النافذة كأنهم دمي تحركهم آلة  
خفية، فاشعر بانفصال عنهم، بانشداد لدفع المقهى.

قالت الممرضة: ألا تذكر سبب مرضك؟ صدمة عاطفية أو  
موت قريب تحبه كثيراً؟

- لا أدري.

- ما زلتَ فاقداً لذاكرتك؟

- أشياء كثيرة أتذكرها، لكن لا رابط يجمعها.

قالت ضاحكة: ذاكرتك تكسرت إلى أجزاء... عليك أن  
تجبرها من جديد...

يكركر مثلي عالياً، يندفع في الغناء، بصوت عنيف،  
متحشرج، فيعم الصمت المقهى. يأتي النادل إليه حانقاً، يمسكه  
من كتفه، يرفعه إلى أعلى، يدفعه بقوة صوب الباب. يلتفت إليه  
ضاحكاً، فيدفعه النادل ثانية، وثالثة، حتى يغيب خلف الدخان،  
ووسط العابرين والسيارات...

انطلقت "الفولكس فاك" بنا، بعد أن أغلق باب المستشفى  
الخارجي. التفتُ إلى مرافقي طالباً سيجارة، بكلمات تشبه  
دمدمة طبل مثقوب. ضحك الثلاثة مني طويلاً. سألني الجالس  
جنبني: ألا تغني لنا مقاماً؟ شاركته الضحك حتى اغرورقت  
عيناها بالدمع. كانت أشجار الدفلى النابتة وسط الطريق مزهرة  
بمصاييحها الوردية، والسماء تشرّبت بضياء الشمس المتوهج  
حتى بدت لي زجاجاً بللورياً. دخلتُ معهم في بناية كبيرة

محاطة بسور عال، فملاً الصقيع أنفاسي للسكون الذي يدبّ فيها، وخيّل إليّ أنني قضيت طفولتي في إحدى حجراتها. مررنا برواق يتموج بلاطه تحت أشعة المصابيح المخفية في السقف. دخلت معهم إلى حجرة تقع في نهايته. فاجأني مشهدها: سجاجيد، ولوحات فنية، وأضواء خافتة، ومكتب لمّاع يجلس خلفه رجل أنيق. وقف أصدقائي الثلاثة قربي. قال بلهجة أب حنون: تحسنت صحتك كثيراً... اندفعت متضرّعا إليه بثغاء متقطع ألا يدخلني المستشفى ثانية. أضاف وهو يغلق ملفاً تحت ناظريه: سنطلق سراحك غداً.

كيف يتركونني وحيداً، وسط حشد غريب عني، لا يجمعني به أي شيء... كانوا لطفاء معي، أعطاني أحدهم علبة سجائره، قدّم لي الجالس جنبي نقوداً، ومنحني السائق هذا النرد. قال عندما أوقف السيارة قرب المقهى: زرنا متى تشاء. غمز لي ضاحكاً، عابثاً بشعري.

كم أتوق لرؤيتهم، للقائهم، للتحدث معهم. كم افتقدتهم...

وهران 1984

## القسم الثاني



## طيور السنونو



ها هي براغ تواجهه مرة أخرى، أمامه يستقر المسرح الوطني، كأنه تاج كبير، يقف على حافة سقفه ممثلون منحوتون من الصخر، وإلى يمينه يجري هادئاً نهر الفولتافا بلونه الرمادي الغامق.

أغلق باب المقهى، وعيناه تتسللان عبر زجاج نوافذها إلى الداخل، يتابع بهما خطوات نادلة المقهى الشقراء، بثوبها الأسود ومريلتها البيضاء. "تري كيف ساجد مركز البريد؟" لقد مرّ به قبل أسبوع، وهو يقابل ساحة صغيرة في وسطها تمثال أسد برونزي، يتدفق من فمه الماء... عبر الشارع إلى الجانب الآخر، ثم مشى على الرصيف يساراً، يتطلع إلى جدار المسرح الرمادي المزركش بنقوش مذهبة، ترتفع بجانبه كنيسة من العصر الباروكي، بزخارفها وانحناءاتها الأنيقة.

عليه أن يعود إلى وطنه، إذ مضى عليه ثلاثة أسابيع في هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها غير لغتهم. لم يكن أمامه خيار سوى أن يلتقي بأبناء وطنه الذين يشاركونهم لغتهم وماضيهم وهو أجسهم، لكنهم كانوا ينفرون منه، كأنه أت من بلد مصاب بالطاعون. إنهم هنا طلقاء، طيور أخرجت من أقفاصها إلى حين، بعد أن قضت نصف عمرها فيها، جاؤوا إلى هذه المدينة الرمادية كي يعيشوا المراهقة التي خلفوها وراءهم دون أن يحيوها.

انعطف يمينا، ثم مضى في درب ضيق، استدار إلى اليسار عند أول مفترق طرق، استقبله زقاق امتدت على جانبيه

البنائيات القديمة المحمول بعضها على أكتاف المردة الصخريين، مطلية بالوان متجانسة بين البنفسجي والرمادي أشاعت في صدره وحشة وانقباضاً. انتهى من الزقاق إلى شارع مكتظ بالسيارات والمارة. سار يساراً، فيميناً. اقتادته قدماء إلى مسالك شتى ليجد نفسه في نهاية التطواف بجانب المقهى التي خرج منها، إلى يمينه الآن النهر الرمادي، وإلى يساره واجهة المقهى الزجاجية. تمتم آنذاك: "المدينة المسحورة لا تمنح نفسها بسهولة للغرباء."

سأل أول عابر عن مكان البريد، لكن الآخر ابتسم وهو يرفع قبعته عن رأسه قليلاً، مغمماً بكلمات غامضة، ثم راح يجرّ خطاه مسرعاً. المقهى مغناطيس يجذبه أينما توجه. ما الذي يغريه فيها؟ أهو الشعور بالأمن لوجود نفر من أبناء وطنه يتوزعون حول طاولاتها؟ لم ير إلا امرأة واحدة من بلاده، عجوزاً جاءت مع ابنها للعلاج، جلسا بجانبه مرة واحدة، تبادل الحديث معهما عن الأمراض، ومكانات علاجها في هذه المدينة، فهو الآخر قد جاء لعلاج قرحة المعدة التي ألمّت به منذ أكثر من عام. ليترك قدميه تقودانه، ويدع ذاكرته طليقة...

مرقت من جانبه بخطى متناسقة رشيقة، حاملة مظروفاً أزرق، فأيقظته من شروده. ها هو يرى قدميه تتقاذبان أمامه، فتصبح المسافة بينهما ضئيلة. ناداها عند ذلك، فالتفتت إليه، لاقاه وجه طفولي، بشعر قصير يصل إلى وجنتيها. سألها متلعثماً عن مكان البريد. أجابته باللغة نفسها: تعال معي.

دخلا المكتب. سأل الرجل الجالس خلف الكوة الأولى عن المكان المخصص لإرسال البرقيات إلى الخارج، فأجابه بلغة

مبهمة. تلقت حوله باحثاً عنها، إلا أنها اختفت آنذاك. ظل واقفاً وسط الردهة يتطلع إلى الكلمات الموزعة فوق الحاجز.

جاءه صوت رقيق واضح: ما زلت واقفاً في مكانك؟ التفت إلى الخلف، فوجدها مرة أخرى، ترتسم في عينيها ضحكة صامتة. كان العرق ينضح من وجهه بغزارة، "التفاهم معكم مستحيل... ولكن من أين خرجت لي؟" أشارت إلى الورا حيث توجد كابينة الهاتف.

- ما الذي تريد؟

- إرسال برقية.

- انتظر لحظة.

اندفعت إلى الكوة الرابعة. وقفت بجانبها لحظات، قم عادت بورقة صفراء. أشارت إلى المساحة التي يجب ملؤها بالكلمات. وإلى المكان المخصص لكتابة العنوان. شكرها ثم ذهب إلى طاولة موضوعة بجانب الجدار المقابل للباب. كتب في الورقة: "عزيزتي هناء... سأقبل إليكم الأربعاء. أنا بخير."

"إلى أين أذهب الآن؟" وقف ساهما أمام الباب، يتطلع إلى الساحة الدائرية الصغيرة، بطيورها المنتشرة قريباً من الأسد المعدني، تلتقط الطعام الذي ينثره لها الصغار. تذكر أن الطيور في بلاده لا تقف إلا فوق منائر المساجد العالية. وصله صوت مرح عذب: "هل انتهيت من برقيتك؟" التفت قليلاً إلى اليمين، فقابلته ثانية، وجهاً لوجه، عيناها في عينيه. جمع شتات أفكاره، أجابها بعد لحظات:

- نعم... ظننت أنك قد ذهبت.

- كنت في كابينة التلفون.

- إنني محظوظ هذا اليوم.

- لماذا؟

- إنها المرة الأولى التي لا أتكلم بإشارات اليد مع الآخرين.

سارا معاً بخطى متأنية. تركها تقوده، وهو يشعر أنه يستيقظ من سبات عميق، زمنه بلا حدود. التقطت عيناه للوهلة الأولى أصص الأزهار الموضوعة فوق شرفات المنازل العالية الممتدة إلى يساره على الرصيف الآخر من الشارع. كان الجيران يوم يتقطر بحمرة زاهية أمامه. جاء صوتها بعد دقائق هامساً:

- كم مضى عليك في براغ؟

- ثلاثة أسابيع؟

- هل شاهدت معالمها الشهيرة؟

- اللغة كانت عائناً ألامى.

- أستطيع أن أساعدك في ذلك.

- أنت جد رحيمة.

ضحكت قليلاً، ثم راحا يمشيا في انسياب، حتى بلغا شارعاً عريضاً غاصاً بالناقلات، مزدحماً بالمارة على رصيفيه. كانت واجهات المحلات تتألق بين الأضواء الملونة. استقلاً سلباً للهبوط، فأدى بهما إلى فناء واسع، مضاء بمصابيح نيونية.

التفتت إليه قائلة:

- عليّ أن أذهب.

- سنلتقي ثانية؟

- بالتأكيد.. ولكن متى؟

- غداً؟

- سأكون مشغولة غداً.. بعد غد؟

- إذن سأنتظرك هنا الساعة الرابعة عصراً.

## 2

ما الذي يدفعها إلى المجيء؟ ألقى نظرة على ساعته. كان عقرباها يشيران إلى الرابعة والرابع، سينتظر عشر دقائق أخرى... أعاد عينيه إلى السلمين المتقابلين على جهتي الفناء، حيث حركة الناس في صعود ونزول دائبين... لقد انقضت ساعات اليومين السابقين، كأنها حبات رمل تتسرب من بين أصابع يد مشدودة. التفت صوب الجدار. نظر بعينين شاردتين إلى الصور المضاءة المعلقة عليه. جذبه إعلان كبير عن عرض مسرحي يبدأ يوم الخميس، فهم ذلك من صورة الممثلين الملونة التي تتوسط الإعلان. "سأكون في بيتي آنذاك..." انتقلت عيناه إلى صورة سيارة حمراء. إنشاء تلك الدقائق، كان ذهنه مشغولاً بالمصعدين. راوده إحساس من يتوقع مفاجأة تغير رتابة مسار اللحظات، حالما يلتفت ثانية نحو الفناء. أمعن النظر في السلم الواقع إلى يساره. انتقل إلى الآخر، فلمح فتاة في أسفله، ترتدي قميصاً أبيض وتنورة زرقاء، خافضة رأسها قليلاً، تحرك ذراعيها بخفة كي تزيد من سرعتها. كانت قادمة نحوه. وجب قلبه وهو يتابع خطواتها. ذكّرت بطائر القطا الذي رآه وسط الحقول يركض هرباً من مطارديه. ما إن قطعت نصف المسافة الفاصلة بينه وبين السلم، حتى رفعت رأسها، ورشقتها بابتسامة، ثم عادت تمشي بخطى أكثر بطاً. وقفت أمامه، تتواثب أنفاسها فوق صدرها. مدّت له يدها:

- اعتذر عن تأخري.

- ما كان عليك أن تُتعب نفسك.

- إلى أين تحب أن تذهب؟

- أنت التي تقررين.

قادته إلى شوارع كثيرة، ضيق بعضها، وامتسع بعضها الآخر، خالية من السيارات. اكتشف تناسق الألوان التي اكتست بها المباني، فانبثق منها بريق الأزمنة الغابرة. شعر أن ما يراه ليس حلمًا يطالعه من عصر ذهبي زائل:

- براغ متحف عجيب.

- أنا أعبدها.

عبرا جسر كارل بخطى وثيدة، وعيناه تتابعان التماثيل الرخامية على جانبيه. شعر أنه يراها لأول مرة، رغم عبوره هذا الجسر عدة مرات، وقفا قليلاً بجانب الحاجز الحديدي. تطلعا إلى النهر الرمادي دقاق. كانت الشمس تلقي بأشعتها عليه، فتتحول إلى شظايا متوهجة طافية فوقه. تدفقت في عروقه الدماء بعنف. التفت إليها فرأها سارحة في الفراغ: "إلى أين تقوديني؟" أجابت ضاحكة: "سترى". انتهيا من الجسر، فمرا تحت برج من الصخر، لونه مائل للسواد، ثم راحت الطرق المرصوفة بالبلاط الأصفر ترتفع وتضيق. واجهما درج ذو سلالم عريضة، منحوت على سفح هضبة عالية، تنتشر على جانبيه أشجار الكستناء. التفتت إليه:

- هل تستطيع الصعود؟

- لا تخافي عليّ.

ما أن وصلا إلى نهاية السّلم، حتى قابلا غابة، يتوسطها ممر ضيق. سارا بين الأشجار، يصغيان معاً إلى همهمات الطيور المتقطعة. كانت عيناه تمعنان في الشجر الذي تداخلت غصونه، كأنها أكف متشابكة، تتسلل من بينها أشعة الشمس، بقع ملتمة برتقالية اللون، تستقر فوق التراب البني وجذوع الشجر. أفضت بهما الغابة إلى حديقة واسعة، تنتهي إلى اليمين عند حافة الهضبة، وأمامهما ظهرت مقهى. ما إن دخلها حتى أطلا على المدينة، يفصلها عنها نهر الفولتافا، الذي لاح كأنه قد تحول إلى بلّور أرجواني غامق.

جلسا بجانب الحاجز، صامتين، يتابعان رواد المقهى، ويتطلعان إلى المدينة التي علاها ضباب شفاف حيناً آخر. انتقل ذهوله إليها، فشعرت كأنها ترى مدينتها لأول وهلة. غمره في تلك اللحظات إحساس سجين يُطلق سراحه بعد سنوات من السجن لا عدّ لها.

- لماذا جئتَ إلى هذه المدينة؟

- من أجل الالتقاء بك.

- أنت رومانسي.

- لقد بحثت عنك طويلاً.

- وعاطفي أيضاً.

رمت بعبارتها الأخيرة، وهي تحدّق في عينيّه. اختفت البسمة من وجهها، ثم راحت تتطلع إلى النهر واجمة. سألها:

- أنت طالبة؟
- كيف عرفت؟
- ذلك واضح، فانت ما زلت صغيرة.
- وكم تقدّر عمري؟
- عشرين عاماً.
- أكبر قليلاً... واحداً وعشرين... وأنت، كم عمرك؟
- تسعة وعشرون... أجابها بذلك، بدلاً من ثلاثة وثلاثين.
- الفارق غير كبير بيننا.. أنت صغير أيضاً.
- ضحكت فاستعادت الألفة مكانها بينهما. سألته:
- ستبقى فترة طويلة هنا؟
- بعد غد أسافر.
- وأنا أيضاً سأذهب غداً إلى أهلي لمدة أسبوع.
- أين يسكنون؟
- في براتسلافا.
- ألا تستطيعين تأجيل سفرك يوماً واحداً؟
- أخبرتهم بسفري إليهم غداً.. سيفلقون عليّ كثيراً.
- سألته بعد لحظات، بنبرة تحمل رجاء خفياً:
- وأنت... ألا يمكنك أن تؤجل سفرك؟
- إجازتي ستنتهي غداً... نطق عبارته هذه، بدلاً من الجملة التي كادت تنزلق على لسانه: "زوجتي وأطفالي ينتظرونني

بعد غد في بيتي."

سألته مرة أخرى:

- أعزب أنت؟

- نعم.

أجابها، وهو يحصي في ذاكرته عدد سنوات الزواج، فيكتشف أن عشرة أعوام قد مضت على اقترانه بأخت صديق له، أعجب بها قليلاً، وما إن صارحها بمشاعره، حتى وجد نفسه محاطاً بشبكة من الألسن والأيدي والأقدام، تدفعه بكل حمية كي يعيش معها في بيت مختوم بابه بوثيقة رسمية، وها هو قد أصبح أباً لثلاثة أطفال وآخر في الطريق.

جاءه صوتها ثانية من بعيد، ضعيفاً: "ولكن عندك صديقة؟" أجابها وهو يخنق ضحكة تفجرت في أعماقه: "الآن، أعيش وحدي..."

ثرثرا كثيراً كصديقين قديمين لم يلتقيا منذ أعوام، واحتسى كل منهما خلال ذلك الوقت كأساً من النبيذ الأبيض، ما أن أكملهما حتى حلّ الليل، فالتمعت مصابيح المقهى النيوونية البيضاء، ومن اليمين أرسلت المدينة أضواءها الملونة إلى النهر، لتتكسر فوق سطحه مكوّنة أعمدة متوهجة، ممتدة إلى جوفه. كان ضوء المقهى يصلهما واهناً، فيمنعه من رؤية النمش الخفيف المبعوث فوق وجهها. سمع صوتها بعد دقائق مرتجفاً: "ألا نذهب الآن؟ فانا اشعر بالبرد."

خرجا من المقهى، تتبعهما مصابيحها القليلة المعلقة على واجهتها الخارجية، وأمامهما أطبقت العتمة على الغابة، فما

عادا يلمحان منها سوى كتل مختلفة في كثافة دجنتها. تمتت:  
سنأخذ طريقاً أخرى أقصر من الأولى. انعطفا يمينا، توغلا في  
غابة يخترقها ممر عريض مكسو بالعشب، ومن خلفها بدأت  
الأصوات والأضواء المنبعثة من المقهى تتلاشى تدريجياً.  
استيقظ في نفسيهما خوف غامض، وهما يلجان قلب الغابة  
المظلم، وسط صرير الجنادب المتواصل. تحسست أصابعه  
يدها فجأة، فأمسك بها. سارا ببطء وهما يتابعان أصوات  
أنفاسهما تتوحد في إيقاعها، يصلهما هسيس العشب الذي  
يضربانه بأقدامهما في كل خطوة، كأنه صوت قطرات المطر  
المتساقط بانتظام وئيداً فوق زجاج نافذة.

هبط بالسلم الكهربائي إلى فناء النفق، يغمره إحساس بأن زمناً طويلاً قد مرّ عليه منذ أن كان هناك آخر مرة. رنا من بعيد إلى جدار النفق، حيث عُلقَت صورة السيارة الحمراء، اتفق معها أن ينتظرها جنب تلك الصورة، إلا أن إحساساً خفياً كان يدفعه للاختفاء بين الناس، ومراقبة تلك الدائرة السحرية. من أي منفذ ستدخل؟ ما الذي ستفعله حينما لا تراني؟ اتفقا البارحة، قبل أن يفترقا، على الالتقاء هنا عند الثانية. أمامهما ساعات قليلة يقضيانهما معاً لتأخذ من بعد قطارها...

هل يترك النفق ويخرج منه وحده؟ أية لعبة هذه التي يدخل فيها؟ وقف بجانب كشك يبيع السجائر والصحف. اشترى منه لعبة، وعيناه تنزلقان بين السلمين المتقابلين. "لماذا تأتي الآن؟" من كان يظن أن حجراً سيُلقي وسط بركة ماء ساكنة منذ عشرة أعوام، ليضطرب سطحها، فتنبعث فوقها دوائر تخلف وراءها دوائر أخرى؟ ها هي أمامه الآن، فاتنة كل الفتنة: طفلة أضاعت أبويها، فراحت تبحث عنهما بين جموع العابرين. ما الذي يشدّك إليها؟ أنت لا تعرف شيئاً عنها، وهي لا تعرف شيئاً عنك، تلتقيان صدفة وسط دوامة حركة لا نهائية، فتتسجان عالماً من الوهم، كأطفال بينون قصوراً على الرمل، لا تلبث أن تسقطها الريح بين أرجلهم. تسارعت أنفاسه وهو يراها تتلفت حولها. اندفع نحوها، فالتقت أعينهما وسط طريقه إليها.

فرح طفولي يملأ عينيها، تخطو نحوه خطوات عجلية متقطعة، فيلتقيان قريباً من وسط الفناء. حدّقت في عينيها، كأنها تكتشف حيلته. مدت له يدها ببرود متعمّد:

- كيف حالك؟ نمت جيداً؟

- ليس تماماً.

- اليوم أنا التي تدعوك.. إلى مقهى "العشاق فقط".

قالت ذلك في فرح، ثم شدّت يده بين أصابع يدها. خرجا من النفق، فصدمتها الشمس المتوهجة. سألتها: تشعرين بالعطش؟ قليلاً.. ما رأيك في قدح من البيرة؟

وصلا إلى ساحة واسعة، محاطة بأبنية قديمة، ينتصب إلى يسارها برج عال، تتوسط جداره المجاور لهما وقريباً من قمته ساعته جدارية، يتحلق أمامها السيّاح، رافعين رؤوسهم إليها، منتظرين دقائقها الخمس القوية، لتُفتَح نافذة فوقها، فتطل دمي، تتحرك أمامهم، وتحييهم. قالت وهي تتطلع إلى السيّاح: إنها لعبة غبية.. سألتها

- كم مضى على هذه الساعة وهي تضرب بناقوسها؟

- لا أدري.. أكثر من ثلاثمائة سنة.

رمت خطواتها إلى الأمام، وصلتهما ضربات الساعة العتيقة، وهما يعبران البرج. تمتم متسائلاً: متى ستسافرين؟.. لا تفكر في السفر الآن.. أماننا وقت طويل.

دخلا المقهى التي وعدته أن تصحبه إليها. جلسا متقابلين خلف طاولة تقع في منتصف الصالة، يجاورهما الجدار

المغطى بالخشب البني. سألهما النادل عما يشربان. طلب قدحاً من النبيذ، وطلبت هي مثله. مسّا كأسيهما الواحدة بالأخرى، ثم احتسبا منهما قليلاً. همس:

– مدهش ما يجري الآن.

– كيف؟

– هكذا نلتقي صدفة.. إنه لا يعدو أن يكون حلمًا.

– ولكننا سنلتقي ثانية.

– الخطوط المستقيمة لا تتقاطع إلا في نقطة واحدة.

– لا تكن متشائماً.. العالم جد صغير الآن.

– نحن لا نعيش سوى حلم ليلة صيف يا صغيرتي.

– أعدك أنني سأكون دليلك المرافق منذ أول لحظة تهبط فيها إلى براغ. متى ستكون إجازتك القادمة؟

– في كانون الأول.

– سنلتقي هنا، ونحتفل بالسنة الجديدة.. ستكون المدينة غارقة في الثلج والضباب.

ارتشفت من كأسها مرة أخرى. ما أن أنزلته حتى لمح التماعة غريبة في عينيها. وضع كفها بين يديه، وإلى جانبهما يسكن كأساهما نصف فارغتين. سألهما وهو يحدق في وجهها:

– كم مضى على لقائنا الأول؟

– عشرة أعوام تقريباً! قالت ساخرة.

ضحكا معاً، أمسك خصلة من شعرها للحظات، وذاكرته

تستعيد مشهد وقوفهما فوق الجسر بعد عودتهما إلى المدينة البارحة، حيث تلالأت مصابيحها فوق النهر، فتسللت شذرات الضوء إلى وجهها، ممزوجة بظلال تتماوج عليه. لاحت أمامه آنذاك غامضة.. لكان الزمن الذي مرّ عليهما خلال وقوفهما أمام النهر شلال عذب من مياه معدنية دافئة، يغوص فيها، يتنفس في أعماقها.. جاءه صوتها متهدجاً:

– كم الساعة الآن؟

– الساعة وخمس دقائق.

– عليّ أن أذهب إلى المحطة.. أمامي أقل من ساعة للسفر.

انتابه ندم لإخبارها بالحقيقة. كان بإمكانه أن يضيف كذبة أخرى، فيقضي الليلة الأخيرة معاً.

\* \* \*

اشترت تذكرة السفر بعد انتظار دقائق، كانت خلالها ساهمة وسط صف من الناس الواقفين أمام احد شبابيك التذاكر، ثم ذهبت إلى يسار الصالة حيث توجد خزانة لإيداع الأمتعة، فاستلمت حقيبتها. قالت له في مرح: الآن، أنا مستعدة للسفر، ومتفرغة لك وحدك.

انعطفا يميناً، فاجتازا البوابة الكبيرة، ثم سارا على الرصيف الثاني، وسط صفير القطارات وضجيج عتلات ماكناتها، حتى بلغا عربة من الدرجة الثانية. فوقفت بجانبها:

– كم بقي من الوقت؟

– عشر دقائق.

- لقد نسيت أن أعطيك عنواني...كم أنا غبية، يا إلهي.

أضافت بعد قليل:

- لا تنس أن تكتب لي حالما تصل إلى بلدك.. ما الذي جرى لك؟ أنت حزين؟

- لا.. لكنني لست فرحاً أيضاً.

- كف عن شكاوك هذه.. سنلتقي دائماً، وسأظل صغيرتك إلى الأبد.

مررت أصابعها بين شعره، وهي تخنق عبرة تفجرت في أعماقها، فضمها إلى صدره، وشدّت هي على رقبته بكلتا يديها، لكانهما يريدان في التصاقهما هذا أن ينفصلا عن مسار الزمن المتتابع بإيقاعه إلى يمينهما، هناك حيث علّقت ساعة كبيرة دائرية، تشير إلى الثامنة إلا خمس دقائق. تداخلت شفتاهما وهما يسمعان صفير القطار معلناً عن وقت الرحيل. مرّت من جانبيهما فرقة جواله صغار تقودها امرأة، فوقف بعضهم قريباً منهما، وللحظات قليلة، يتطلع مستغرباً إليهما. جاءهما صوت المستخدم طالباً من المسافرين الإسراع في الصعود. وثبت إلى داخل العربة، ثم ناولها الحقيبة. وقفت خلف الباب المفتوح مثبتة عينيها في عينيّه، وقد التصقت دمعتان بجفنيها السفليين. أغلق عامل القطار الباب، فظلت نظراتها من وراء الزجاج الذي يغطي جزأه الأعلى تغزو عينيّه.

تململ القطار بعد أن صفر ثلاث مرات. انسلّت عربة، ثم تلتها أخرى. ها هو يفتح باب العربة الثالثة، فيقفز إلى الداخل.

يسير بخطى مجنونة إلى اليمين. يتسمّر بجانب كابينة، يجلس فيها جمع من الناس، وتقف فتاة بجوار نافذتها مولية ظهرها إلى الباب. يصيح بها، فتلتفت إليه بعينين حزينتين.. يختفي القطار في خطاه، ويجد نفسه واقفاً على الرصيف في مكانه.. أسرع القطار في خطاه، حتى مرقت آخر عرباته من جانبه، ثم بدأ يغوص في الأفق الذي علاه الشفق الأرجواني.

كان الغروب قد حل آنذاك عميقاً بزرقة سمائه، فلعلت أصوات طيور السنونو مودعة النهار. عاد ثانية نحو البوابة الكبيرة، وعيناه تنظران إلى الوراء. كان كل شيء آنذاك ساكناً في مكانه. أخرج من جيبه الورقة، ومزّقها قطعاً صغيرة، ثم ألقي بها في الفراغ هامساً في نفسه: "ترى ما لون عينيها؟"

وهران 1982



## المنفيون



كان هواء المكتب مشبعاً برائحة الأسفنيك عند وصولي إليه ذلك السبت، والعتمة متغلغلة بين ثنايا الستائر الرمادية، على الرغم من زرقة السماء المتوهجة في الخارج. ارتبكت المنظمة لظهوري المفاجئ فراحت تشغل نفسها بلف إزار (الحائك)<sup>(1)</sup> حول خصرها استعداداً لمغادرة المبنى، متبادلة جماً وضحكات متشنجة مع البواب الذي طفح الاستياء فوق عينيه من قدومي المبكر.

لم يتجاوز عقربا الساعة الجدارية السابعة والنصف. كان لدي متسع من الوقت لإنجاز الشغل الذي تراكم على الطاولة، قبل بدء الدوام ومجيء الآخرين. قضيت الأيام الثلاثة السابقة في سفرة قصيرة إلى ميليلية ووجدة، برفقة زوجتي، وعدنا مساء الجمعة إلى وهران.

بين الخرائط والملفات المتراكمة أمامي، ظهر ظرف زيتوني اللون مدعوك ومهترئ، إلى درجة جعلني أظنه ورقة من سلة المهملات، وضعتها المنظمة خطأً فوق مكتبي، لكنني لمحت اسمي مطبوعاً عليه وسط حشد من كتابات اليد الغاضبة، لكأن ذلك الظرف قد تنقل حول عناوين كثيرة قبل بلوغه الطابق الثالث. رفعته قليلاً فانسلت من زاويته اليمنى ورقة شبه شفافة. انحبس الهواء في رئتي وأنا أسحبها. كانت

---

(1) الحائك: لباس شعبي نسائي سائد في المغرب العربي.

برقية من سطر واحد مكتوبة بالفرنسية. لم أفهم محتواها مباشرة. سألت البوّاب عن وقت وصولها إلى المكتب، فأجابني متبرّماً: "أول البارحة". اتضح معنى الكلمات واحدة بعد أخرى تحت عيني: "احضرُ حالاً، صفوت في خطر، نحن بانتظارك..."

كان مفترضاً أن يرافقنا "صفوت" في السفر إلى المغرب، لكن حادثة صغيرة جعلته يغيّر رأيه، وهو الشخص ذو المزاج المتقلب الذي تتناوبه الرغبات المتعارضة في لحظة واحدة بنفس القوة: ذكرت "هالة" في آخر لقاء لنا به، وبشكل عرضي، حينما أخبرنا عن نيته باصطحاب "سديم" معه في رحلتنا المشتركة، كم أن الكلاب تسبّب لعينيها تهيجاً واحتقاناً كلما مكثت معها طويلاً. قال "صفوت" آنذاك: "وأين أضعه؟" قالت زوجتي: "لِمَ لا توصي أحدهم به...؟" قال صفوت بجفاف: "ليس لدي أي علاقة بهم". بعد يومين من ذلك اللقاء اتصل بي معلناً عن انسحابه من مشروع السفر لمشاغل طارئة في عمله تقتضي الإنجاز السريع.

تركت مع البوّاب قصاصة ورق لمديري أعلمه فيها عن سبب تغيبه. وعندما أغلقت الباب ورائي، تخيلت عبوس وجهه وهو يقرأ رسالتي المقتضبة، فانتابني إحساس بالضيق. يمتد الطريق إلى مدينة بلعباس كالأفعى بين السهوب الواسعة المزروعة بالقمح. آنذاك كانت الصفرة قد وشّحت السنابل بميسمها، والرؤية المفتوحة للأفق دون عوائق تمنح الإحساس بالحرية والاندماج في ذلك المهرجان الذي بدأت الطبيعة مع بدء شهر أيّار. لكنني كنت تحت وطأة تخدير وهمي منعني من

الانتباه إلى الخارج، أو التفكير بما أصابه بالرغم من أصرة القرابة التي تجمعنا، وبرغم أننا عشنا الطفولة في قرية واحدة. كان "صفوت" مولعاً منذ طفولته بالطيور والحيوانات، فلم يمض يوم دون وجود ثلاثة أنواع منها على الأقل معه. يقضي معظم فراغه في الغابة، باحثاً عن أفراخ البلابل. وفي بيته خصصت له أمه قنّاً كبيراً إلى جوار قن الدجاج الذي يلزمه العناية به، مقابل السماح بتربية ما يرغب من طيور وحيوانات غريبة.

وصلت إلى بيته عند الضحى. كان الشارع خاوياً من الأطفال، ولا شيء يبعث على الظن بوقوع مصيبة ما. ضغطت على جرس الباب عدة مرات، فلم يصلني سوى الصمت. لمحت من بعيد كلب "صفوت" وسط الشارع مترنحاً، يخبّ من مكان إلى آخر. أقبل نحوي. وما ان وصل قربي حتى تصاعد صوت لهائه متقاطعاً مع عويل مختنق متمزق. ربتُ على رأسه، فمضى يحدق في وجهي بعينين مخبولتين. أدركت القفل بالمفتاح الإضافي الذي أحمله معي دوماً. ازداد تهيج الكلب، مما اضطرني إلى توبيخه بحدة. سكنت قليلاً، لكنه عاد ثانية للهائه الغريب وعويله. كان صفوت يردد بلغة أمرة كلما سمعني اسخر من هجنة كلبه: "مزّفه"، وإذا بسديم ينقلب إلى ذئب غاضب، مكشّراً عن أنياب مخيفة تبعث الشلل في أوصالي، لكن ما أن ينطق سيده بكلمة "كفى"، حتى يتحول كلبه إلى حمل وديع، يدور حولي، منتظراً تربيته على ظهره، يؤكد صفوت أنه وكلبه قد عقدا اتفاقاً غريباً بينهما: إذا شاهد أي منهما كابوساً فإن الآخر عليه القيام بإيقاظه. وقد التزم كلاهما بتنفيذ ذلك الاتفاق دون تلكؤ.

كانت شقيقته على حالها، وهي لا تعدو أن تكون مسكناً خشبياً انتشر طرازه في اطراف بلعباس على هيئة مستوطنات صغيرة تابعة للمصانع الجديدة. مع ذلك فقد تسرب إليّ شعور مجنون جعلني أتأمل أشياءه المتوزعة هنا وهناك بشكل غامض، لكانها بقايا حجرية تركها مخلوق غامض في كهفه قبل آلاف السنوات. صندوق البيرة موضوع كالعادة في مكانه تحت مغسلة المطبخ، والصحون مغسولة ومرصوفة في السلة المخصصة لها، المنشفة البيضاء في الحمام عليها بقع دم ناجمة عن جروح حلاقة طائشة للوجه. كانت محتويات الشقة تعطي ذلك الانطباع بأن صاحبها من أولئك الذين يخضعون حياتهم لفكرة واحدة لا يحدون عنها أبداً. في غرفة الضيوف علق صورته، وصورة أخرى معي برفقة كلبه، التقطتها هالة لنا قرب بحيرة بلعباس الصغيرة.

ذهبت إلى مكان عمله. التقيت بمديره الذي اكتسى وجهه شيء من الشحوب حينما علم بعلاقة القربى التي تجمعني بصفوت، بل شابت لهجته نبرة اعتذار، كأنه مسؤول عما أصاب قريبي. أخبرني أن صفوت في المستشفى، وحينما سألتها عما حدث له، نقل باقتضاب حادثة اصطدام سيارته بشجرة على الطريق الخارجي عندما حاول تجنب شاحنة مقبلة نحوه وجهاً لوجه. قبل خروجي أظهر أحد الموظفين رغبته بمرافقتي. أخبرني في الطريق أن معظم زملائه قد ذهبوا إلى المستشفى لمرافقة صفوت من بعد إلى... وإن ما سمعته من المدير لم يكن إلا نصف الحقيقة، إذ لم يرغب بمفاجأتي بكل الأخبار الحزينة.

كانت باحة المستشفى خالية من الناس، لكن مناديلهم الورقية وأعقاب سجائرهم ما زالت مبعثرة فوق الأرض الترابية، مما يشير إلى مغادرتهم ذلك المكان قبل فترة قصيرة، مخلفين وراءهم صمتاً مذهلاً. وحينما دخلت المبنى من بابه الواسع، التقيت برائحة الأسفنيك مختلطة بروائح غريبة أخرى: الكحول؟ وربما رائحة الطعام المعدّ للمرضى الراقدين في المستشفى. قد أكون مخطئاً إذا قلت بانني شممت كذلك رائحة طلاء الجدران النفاذة مختلطة بالروائح الأخرى. في وسط ردهة الانتظار الواسعة شاهدت ممرضة تحرك بين لسانها وأسنانها اللامعة البياض قطعة لبان باهتمام كبير. وقبل أن أشرح لها هدف زيارتي، أجابت وعلى عينيها شيء من الدهشة: "مسكين أخذه لمقبرة الفرنسيين..." ثم انبرت بعض الوجوه لي مندهشة ومستاءة. قال أحدهم: "عربي ومشارك؟ سبحان الله..." قال الموظف مخففاً وهو يربت على ذراعي: "أنا أعرف المكان، لنذهب".

خرجنا من المستشفى. قدتُ السيارة بشرود مطلق. كان الجالس جنبي دليلي: "استدر يمينا ثم يساراً. امض في الشارع إلى نهايته..." ووسط السيارات المقبلة من شتى الاتجاهات، وسط الناس العابرين من رصيف إلى آخر، بين خطوط الدكاكين المصطفة كبناءات الدومينو، أحسست كأنني منساق في حركة غريبة، قطعة حلم بلا بداية ولا نهاية. حقيقة واحدة ظلت راسخة أمامي: الشمس المتقدة فوق الرأس. قال الموظف محاولاً كسر حالة الجمود الجاثم بيننا: "هذا هو مارشي الغرابة". استطعت لمح باعة أكياس النايلون الصغار أمام بناية سوق الخضار الشعبي. كنت أرافق صفوت إليه كلما قمت

بزيارته في عطل نهاية الأسبوع، حيث نقضي وقتاً طويلاً فيه، نتجول، أثناءه، بين المساند الخشبية الممتدة خطوطاً متوازية ومتعامدة داخل صالته المغلقة الكبيرة. اعتاد صفوت على شراء، لحم الخيول الهرمة لسديم من دكان قصّاب أحول، ولحم البقر لنا من قصّاب آخر. قلتُ له مرة هازئاً: "لا بدّ أن كلبك سيتبنى صوت الخيول قريباً". لكنه لم يواجه ملاحظتي تلك بأكثر من ابتسامة متشنجة وتريّبة على رأس سديم، جعلت ذيله يرتعش فرحاً. ثم تبادلنا نظرة تحمل شيئاً من التضامن ضد سخريتي المتكررة.

تباطأت حركة السيارات مع تكاثر الشوارع الفرعية وتزايد عدد المشاة المتنقلين من رصيف إلى آخر دون اكتراث بالعربات. كانت المقاهي والمحلات الصغيرة ملأى بالقرويين. قال الموظف فجأة، "قف هنا..." ومن بعيد لمحتُ بعضهم يرمون خطواتهم بصمت، أفراداً وجماعات، وأعينهم تراقب الشارع بذهول.

كانت بوابتا المقبرة مفتوحتين، وعلى وجه الحارس بدا الاستياء والاستغراب، وهو يفسر ما حدث لبعض المارة الذين وقفوا قربه. قال زميل صفوت الجالس جنبي بلهجة معذرة: "هذه المقبرة لا تُفتح إلا نادراً منذ زمن الاستقلال. إنها شبه مهجورة". سألته إن كان أقارب الموتى يأتون لزيارتهم. قال بتردد: "أعتقد جداً قليل. أنت تعرف أن عشرين عاماً قد مضت على خروجهم من بلادنا. والناس تنسى مع مرور الوقت". كانت أصوات بعض الفلاحين تتسرب في الفضاء وهم يضربون يداً بيد: "لا حول ولا قوة إلا بالله، عربي وفي مقبرة الروميين..."

لكن الضجيج خفّ تدريجياً ونحن نلج إلى الداخل. استقبلنا شارع على طرفيه تبسق أشجار السرو، تمتد قممها متقاربة تدريجياً حتى تلتقي في نهايته مكوّنة درباً موصلاً إلى السماء المتوهجة الزرقة. ووراء تلك الأشجار استطالت أذرع النباتات متداخلة مع بعضها، زارعة ذلك الإحساس باللازم: شقائق النعمان الحمراء وزهور البابونج الأصفر مع الشوك والصبير الصامت، شتلات القرنفل والجوري ملتفة عليها، نباتات العليق واللبlab، والميموزا المتوهجة بالورد الأصفر، وسط سيقان العشب اليابس. ما إن انتهينا من ذلك الطريق حتى راحت الأرض تصعد بنا وسط ذلك العالم الموحش. وحين بلغنا قمة الأكمة لمحنا غمامة من الناس محتشدين في الطرف الأقصى النائي من المقبرة. فهبطنا إليهم وسط دكات من المرمز، بعضها مهشّم، وبعضها الآخر مغطى بالتراب، تنتصب فوقها صلبان معوجة قليلاً، وتمائيل رخاميّة متأكلة، ملتفة حولها خيوط العليق اليابسة.

وهناك رأيتهم جميعاً. بالرغم من انقطاع علاقتهم بصفوت، بالرغم من خلافاتهم مع بعضهم البعض. ها هم أبناء المدينة الموبوءة يقفون جنباً إلى جنب، الخصوم والأصدقاء معاً. يلتصق كل منهم بالآخر خوفاً من قدر غامض قد يصيبهم على غفلة. ما بعث على الضحك المجنون تقمص روفائيل دور القس، فمضى يقرأ بتلعثم ممثل رديء نصاً من كتاب العهد القديم: "إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً، لأنك أنت معي، عصاك وعكازك هما اللذان معي..." في الجهة اليمنى اجتمعت النساء حيث اقمن مناحة شبيهة بتلك التي كانت تقيمها أمهاتهن وجداتهن: اللطم على الخدود والصدور، هيل

التراب على الرأس، البكاء الشديد على إيقاع أهازيج عاشوراء. وما زاد في المناخ من كوميديته ومأساته قدوم "سديم" الذي ظل على بعد أمتار قليلة عنا. مختفياً وراء شاهدة قبر مراقباً ما يجري لسيدته الذي هبط إلى القاع دون مقاومة. في الجانب الأيسر، احتشد عدد من زملاء صفوت، وهم يتابعون باندهاش طقوس تلك القبيلة المجنونة، لأول مرة، حيث انشدت أبصار أفرادها الزائغة إلى الهاوية الجاثمة أمامهم، لكنها مرآة تنعكس فوقها صورتهم، على إيقاع قبضات التراب المقذوفة نحوها برتابة ثقيلة.

حينما انتهينا من طقوس الدفن التف الجميع حولي معزياً. كانوا بانتظار إشارتي للعودة إلى المدينة، لكن إغراء غامضاً دفعني لمقاومة نظرات التضامن والتآزر التي طوّقتني. أخبرتهم أنني سأقضي وقتاً مع صفوت ثم التقي بهم من بعد. كان شدو الطيور استثنائياً في تلك الظهيرة المشرقة. إذ بانغلاق تلك البقعة في وجوه الأحياء عشرين عاماً تحولت إلى مستعمرة تسكنها أغرب الطيور: العنادل، الشحارير، الهداهد وطيور الحناء النادرة، عدا ألوف العصافير. وما شجعها على الاندفاع في الغناء الطلق وجود تلك السماء المتوهجة بزرقة بلورية.

تدريجياً، جذبتني الأصوات، الألوان، روائح الأزهار البرية ونعومة التراب الندي في قبضة يدي اليمنى. اندفعتُ بخطى تائهة بين دكات المرمر المهشم أحمل في صدري أمنية قبول ذلك العالم المهجور لصفوت دون مصاعب.. مجنوناً كنت آنذاك. أردت إقناع أولئك الذين أصبحوا فجأة غرباء على

أرض كانت ملحقة، ولزمن طويل، ببلادهم، بأن الزائر الجديد غريب مثلهم، ولن يعرّف صفوفهم، وإذا كان بعضهم يحمل شهادات عليا فإن صفوت متخصص في الإلكترونيات، وهو لاعب شطرنج ماهر، ويعرف الكثير عن الطيور والنباتات... هكذا تصاعد صوتي متداخلاً بذلك النشيد المتواصل حولي، أحسست أن أجنحة قد نبتت لي، وإن "سديم" قد تحول إلى لقلق رشيق الحركة. ثم إن الطيور قد قبلتنا معها دون أن تسألنا عن مكان ميلادنا، ودون أن تطالبنا بتقديم أي أوراق تثبت هويتنا، بل هي وافقت على أن نشارك في هجراتها المنتظمة... سنندفع من الآن فصاعداً معها في الرحلات الطويلة المتواصلة، دون الانشداد إلى قبلة أو موقع معين، وحتى نهاية الشوط.

لندن 1990



حالمون من ذاك الزمان



كانوا كالطيور المهاجرة، يحلّون في وهران، فجأة، كل خريف، تضجّ بهم أقسام الجامعة الداخلية بهم: بضربات أحذيتهم العسكرية، بضحكاتهم المتواصلة، بالميجنا التي ترتفع وسط الأزقة. يتكدسون في حجرات زملائهم إلى حين الحصول على غرف لهم. ومن هناك تفوح رائحة الهيل والقهوة التركية، وتتدفق إلينا أغاني فيروز عالياً. وهم في قدومهم يكسرون جفاف الحياة اليومية في الجامعة، ويمنحون مذاقاً رائعاً وعذوبة للسنة الدراسية الجديدة. لكنهم، فجأة، يرحلون مرة أخرى، كالطيور المهاجرة، في وقت واحد إلى لبنان، عند وقوع هجوم جديد على الجنوب، فيتركوننا أشهر عديدة وسط الجفاف، منتظرين في لهفة وقلق عودتهم.

لكأن لقائي الأخير بأسعد قد حدث البارحة. وكم كنت، يا إلهي، غبية آنذاك. فلو أنني تصرفت بطريقة أخرى معه، لتمكنت من إقناعه بالبقاء فترة أطول في وهران، ولربما تبدّل مسار الأحداث. وقد يؤدي ترتيب آخر للمصادفات إلى خلق وضع آخر يجعله في حلٍّ من تلك المسؤولية التي وُضعت أمامه. ومثلما أعرفه، فهو الذي يتسابق في العطاء إلى حدّ يتيح للآخرين الإحساس بأنه قد خلّق لخدمتهم، لمواساتهم، وتوفير السعادة لهم، وبالمقابل، فليس عليهم أن يقدموا له أي شيء، لضالة طلباته، وتجنبه الحديث عن نفسه... وصلني مع بدء غزو عام 82 خبر سفره إلى دمشق، قبل إنهائه الامتحانات ليتوجه من هناك إلى جنوب لبنان برّاً.

حَلَّت العطلة الصيفية، فجرّني البحر إلى أحضانه. كنت أرافق أخي وعائلته كل أسبوع إلى شواطئ "عين التُّرك" أو "الأندلس". أقضي النهار برفقة الشمس والرمل الساخن، والمياه الباردة. أدثر جسدي بين الموجات البيضاء، المتقافزة على الشاطئ. وبرغم انشغالي الكبير بالأنباء الحزينة القادمة من لبنان، لكنني بقيت واثقة من عودة أسعد في سبتمبر مثلما اعتاد أن يفعل في السابق. ومع القلق المتزايد على مصير الناس هناك من تقدم الغزاة إلى الداخل بعد احتلال صيدا، كانت عاطفتي القديمة له تسترجع مواقعها في قلبي. وكان البحر عزائي الوحيد، فيه أدفن كل أحزاني، حيث أنتظر لهفى لقاءه كل أسبوع، لأبكي بين ذراعيه، فيمسّد شعري، ويمسح عن عيني الدموع، وعندما تغرق الشمس غروباً في أعماقه، يبعث في قلبي الطمأنينة والسلوى.

كنت أرى أسعد، من وقت لآخر، في الحلم؛ حيث لم يزل ألق حبه عالقاً فوق عينيّه. نمشي أحياناً يداً بيد على "جبهة البحر" أو ساحة الجامعة المسوّرة بأشجار السرو والصفصاف. وأحياناً أُراني ملتصقة به، دافئة رأسي بين شعر صدره الكثيف، تطويني ذراعاه، لكأنني قطعة منه... استيقظ صباحاً على أصوات أطفال أخي. يتسرب من النافذة المفتوحة هواء مثقل بالرطوبة ورائحة البحر الأشنية. يسقط شريط من ضياء الشمس على سريري. أنزع الشرشف الأبيض عن جسدي، أتحرك صوب بقعة الضوء حتى تغمر صدري. ألمسّ جسدي بأناملِي، ماسحة قطرات العرق المنثّنة بملح البحر. يلوح أسعد قريباً مني، أراه جالساً جنبي، يمسّد شعري برقة، فأمدّ يدي إليه... ثم فجأة، تغادرني بقعة الضوء، ويغادرني أسعد تاركين وراءهما ظلّ البحر ورائحته الأشنية على فراشي.

لكن الأنباء الحزينة ما انفكت تصلني يوماً بعد يوم: بيروت محاصرة، قتال ضار، قتلى بالمئات، عشرات الصغار يتصدون للدبابات بأجسادهم المغمومة. الجلاء، مرة أخرى، حفاظاً على حياة المدنيين العزل، انتقال الفدائيين إلى عدة بلدان؛ الشتات ثانية، الاندثار ثانية. العنقاء تُحرق من جديد... ثم جاءت المذبحة في صبرا وشاتيلا.

ومع حلول أكتوبر، بدأ بعض الطلبة بالعودة إلى وهران، ورحنا نسمع منهم عما لحق بمن لم يستطع الرجوع: هناك من جرح، هناك من أسر، وهناك... ولم تكن الطريقة التي غادرنا بها أسعد إلا أفضل ما كان يمّتي النفس بها. يروي صديقه أن رفيقاً له جرح في بطنه فوضع الفصيل أمام أحد خيارين: تركه ليقع بيد الغزاة الذين يطوقون المنطقة، أو قتله. اقترح أسعد حلاً ثالثاً، أن يقوم بحمله، مع إعطاء الآخرين الفرصة بالانسحاب السريع، والخروج من الحصار. حلّ الليل آنذاك، لكن نثار الضوء القادم من النجوم، أتاح لأسعد المضي بخطوات وثيدة صوب الشمال.

كيف ومتى جرح أسعد؟ كل ما عُرف، من بعد، عنه، أنه حال وصوله إلى موقع الفدائيين، سقط على الأرض. لم يكن الجرح عميقاً جداً، ولم يسبب كسراً في العظام عدا انقطاع شريان، سبّب النزف المتواصل منه إلى توقّف قلبه عن النبض بعد دقائق قليلة، راح خلالها يُطمئن المحيطين به من تفاهة جرحه، خجلاً من هذا الاهتمام به، سائلاً عن حال رفيقه، الذي تم إنقاذه... إنه القدر على أية حال، لكن الندم ما زال يقضم أحشائي بأنياه. إذ قد أكون السبب في ذهابه المبكر، ولربما استطعت تأخير له لو أنني...

## 2

سمعت عن أسعد الكثير، قبل انتقاله من عَنَابة إلى وهران. لطالما تحدث عنه أصدقاؤه طويلاً. يتندر بعضهم بشروده الدائم: نسيانه للمواعيد وأوقات الامتحانات، فقدانه المتكرر للنقود وحقائب اليد الصغيرة... يحكي آخرون عنه كأصغر فدائي شارك بعملية جريئة في الأرض المحتلة، حين كانت المقاومة على أبواب الانتقال إلى لبنان. كيف صدرت ضده أحكام بالسجن المؤبد على طرفي نهر الأردن. لم يتجاوز آنذاك عمره الخمسة عشر عاماً.

اشتهر بين رفاقه كأفضل من يتقن الأسلحة الثقيلة، في الوقت نفسه، فهو مولع بإعداد القهوة التركية الممزوجة بالهيل، ومن الممكن أن يتناولها أو يدعو ضيوفه لها، عند الساعة الرابعة صباحاً. إذ ليس هنالك فاصل بين الليل والنهار لديه: أحاديث متواصلة، أسئلة للحوار، وقهوة، ومطالعة، وأنّى تسأله عن مساعدة يلبّيها مردداً عبارات اعتذار لمحدوديتها. كان حاضراً في وهران قبل مجيئه إليها. وكم فاجأني دخوله إلى قاعة المحاضرات، صباح ذلك النهار، الذي سقطت فيه الأمطار بغزارة، بعد موسمي جفاف متعاقبين. حدث ذلك في جانفي. (ما زلت أتذكر التاريخ حتى هذه اللحظة). فجأة، وبعد تقلب الغيوم، بعضها فوق بعض طويلاً، بدأ المطر بالهطول على هيئة رذاذ خفيف، رحت أطالعه من نافذة القاعة المجاورة لي،

وظل الخوف، من تبعثر الغيوم ومضيّها صوب الصحراء، ملازماً إياي. كانت أمنية واحدة متسلّطة على نفسي آنذاك، أن يتواصل سقوط المطر، أن يندفع أقوى فأقوى، أن أسمع صوته، أن أشم رائحة التراب وهو يتحول إلى طين أحمر اللون، أن أخرج إلى الساحة لأترك جسدي تحت رحمته.

كان مظهره عادياً، معطف كاكي قصير، شعر مجعّد يجعله شبيهاً بأغلب الشباب في وهران. كدت التفت إلى النافذة، عندما ارتفع صوت أحد أصدقائه: "أسعد". مضيتُ أراقب خطواته الخجولة، وكأنه يسعى بها أن يجعل حضوره أصغر ما يمكن، وهذا ما أثار الشفقة في نفسي عليه.

اندفع المطر غزيراً، فجرّني إليه مرة أخرى. ازداد انفعالي إلى حد أصبح البقاء عسيراً عليّ في القاعة. رغبتُ أن أرى ذلك الغريب، لكنه اختفى وسط تلك الغابة من الوجوه والأجساد خلفي. وبقيت سارحة إلى الساحة والسماء الرمادية والأشجار، التي انبثق منها بريق الخضرة الحاد أخيراً... ولا أدري لماذا اندفعت في بكاء صامت آنذاك.

لم تتوقد عاطفتي نحوه فجأة، بل هي شبيهة بقطرات ماء ترشح من فخارية كبيرة، إلى حوض كبير. من سيصدق أن هذه القطرات ستملأه يوماً ما؟ ما سهل لعلاقتنا أن تتعمق سريعاً، معرفته بتاريخ الجزائر الحديث. كم تجعلني أحاديثه في وضع مربك أحياناً، لكثرة ولعه، بالأرقام والإحصائيات، والكثير من التفاصيل الأخرى. لكنه يتوقف غالباً، مستدركاً، ومعتذراً، مردداً بتلعثم: "إنها معلومات عديمة الفائدة". فيبدأ بإثارة أسئلة عن فترة ما بعد الاستقلال، عن كيف كانت الجزائر قبل ذلك، عن قريتي التي ما تزال عائلتي تسكن فيها.

سألته، ذات مرة، عن أهله الذين يعيشون في قرية قريبة من نابلس، كم مضى عليه دون أن يراهم؟ هل يرأسهم؟ قال انه لم يكتب لهم منذ عشرة أعوام، وإن أباه قد اعتاد الذهاب كل يوم إلى البريد الواقع على بعد كيلومترين مشياً على الأقدام، للاستفسار عن رسالة قد تكون وصلت من ابنه "العاق".

وحيثما استفسرتُ باستياء عن سبب انقطاعه، أجابني بأنه يقرر كل مساء أن يبادر بالكتابة إليهم، لكنه في الصباح، يجد نفسه منشغلاً بأمور أخرى صغيرة، تبعده عما قرر القيام به. أضاف ضاحكاً إنَّ أباه في حاجة إلى حلم دائم، طالما أنه يسكن في الأرض المحتلة.

تلتقي هناك غالباً، مجموعة من الطلبة الذين لهم اهتمامات

سياسية أو ثقافية. كنا ثلاث فتيات وشابين من وهران، والبقية إما فلسطينيون أو مشاركة. وكم يبدو الفارق كبيراً بين جو المقهى، الواقعة في الطابق الأرضي، حيث هناك عالم مطلق من الرجال، يصخبون في أحاديث مملة، وبين جو الشقة التي تملأ المطبوعات فيها الرفوف والطاولات والكنبات، وحيث الخلافات حول التفصيلات.. كأن العودة إلى الوطن بالنسبة إليهم متحقة غداً، وما عليهم الآن إلا أن يتفقوا على الجزئيات. كانت، تتخلل هذا الجو الجدّي، فترات من المرح، نشرب النبيذ أحياناً. نتناول وجبات طعام فلسطينية: المقلوبة التي يتباهى الفلسطينيون بها كثيراً.. أعد، من وقت إلى آخر، كسكسي ومرق. ويحدث سجال بيننا عن المطبخ الجزائري والفلسطيني.

أصبحت تلك الشقة واحة، يشتاق كل منا الذهاب إليها. كنا نقوم بالكثير من الأشغال الصغيرة البيئية فيها: طلي الجدران، شراء أغذية للكنبات الحديدية العتيقة، ترتيب قطع الأثاث القليلة، جلب بعض البوسترات... كنا نتصرف كأنها ملك لنا. ونحن الجزائريين متطرفون في مشاعرنا حين نحب وحين نكره. (وفي كلتا الحالتين: الويل لمن تنصّب عليه مشاعرنا...)

المشاركة دمثون، ليّنون، لهجتهم أنيقة ومزخرفة، بعكس رجالنا الصريحين، المباشرين بلغتهم، بنظراتهم، بحركة أجسادهم. كنت أجدني مدفوعة نحو التحرك ببطء، خلافاً لطبيعتي، لمسايرة حركتهم. كانت الدماء تغلي في عروقي، وكل عصب في جسدي يتدفق بعنف نحو الفعل، لكن المدينة الضيقة، وفظاظة الرجال تجاه النساء، والضغطات الكثيرة حولي، تدفع باتجاه معاكس لما ورثته. فانا في لحظة تتناوبني

عشر رغبات متناقضة: الرغبة في الرقص، الرغبة في الغناء،  
الرغبة في السباحة، الرغبة في القراءة... وفي تلك الواحة أجد  
ملاذاً لروحي. إذ هي المكان، الذي أزيح فيه عن نفسي ثقل  
البراكين المتفجرة كل يوم، وفيه تهدأ روحي، وتجد لها  
اهتمامات أخرى أوسع من دائرة الذات.

متى استعرت الشرارة في القلب؟ ثلاثة أعوام مضت ونحن  
 نلتقي كل يوم تقريباً. يغيب أسعد أحياناً عن بعض المحاضرات  
 فاضطر لمساعدته في كتابتها وشرحها له. وحينما تقترب  
 الامتحانات أو اظب على متابعته، لسهولة انغماسه في أمور  
 أخرى: مشاكل رفاقه الطلبة التي تحتاج إلى حل سريع، السفر  
 القصير إلى المشرق، حبه للسهر، ووجود الضيوف المتواصل  
 في بيته. وهذا ما يدفعني إلى معاتبته، وهو يتصرف كالطفل  
 في ردود أفعاله: خجله، مداعباته، مشاعر الذنب التي تطفح  
 على وجهه، إبداع الحجج المختلفة لتبرير ذلك التقصير. لقد  
 وجدت نفسي بعد فترة قصيرة مسؤولة عن نجاحه، وكنت  
 ممثلة فخرأ بذلك الواجب.

أحياناً أقضي معه الليل كله في مراجعة الدروس، تهيوأ  
 لامتحان ما، وهو يحاول الإفلات من إلحاحي المتواصل،  
 باختلاق أعذار متنوعة: عمل قهوة أخرى، قراءة مقالة في  
 مجلة، تنظيف الحجرة وترتيبها، أو إعداد وجبة سحور خفيفة،  
 وهذا ما يزيد من إلحاحي وتصميمي على مواصلة الدراسة.

وجاءت اللحظة التي قلبت الأشياء حولي رأساً على عقب،  
 فجعلت الباهت اللون لماعاً، واليابس مفعماً بالخضرة، ومعها  
 فقدت شهيتي للطعام، وأصبح الرقاد في الليل أمنية، لكأنني  
 شبيهة بامرأة حامل في نهاية شهرها التاسع، تنتظر اللمسة

الأخيرة التي ستقودها إلى المخاض، ولم تأت هذه اللمسة إلا بعد انقطاع لقاءاتنا المنتظمة. أصبح أسعد منكباً على مشاغل أخرى، يتحدث معي بجدية، وأحياناً ببرود، أصبح يحسب المسافة بيننا، يُعدّ كلماته التي يقولها لي، يتجنب دعوتي إلى بيته. وقد سبقت هذه التغييرات حادثة أخرى: رأيته، وأنا في الحافلة، يتمشى صوب موقف الحافلات برفقة زميلة أخرى. كانا في غاية الانسجام، وابتسامة عريضة تملأ وجهه. لكن المياه قد جرت من تحتي دون أن أنتبه لها، وهأنذا أوضع في موقع من عليه مغادرة المسرح بصمت.

بعد ثلاثة أيام من بدء العطلة الربيعية، اندفعت دون إرادتي إلى بيته، وحينما قرعت الباب لم أستلم سوى الصدى والصمت، وهذا ما دفعني للذهاب ثانية ظهراً، ثم مساءً، لكن دون جدوى. وفي اليوم اللاحق توجهت صوب شقته الساعة السابعة صباحاً لأضمن رؤيته، لكنني في الطريق بدّلت رأبي: أليس الوقت مبكراً جداً؟ ألم يكن عليّ أن أضع قليلاً من الماكياج على وجهي؟ ابتعدتُ عن باب العمارة، لاندفع نحو شارع "جبهة البحر".

وقفت جنب الحاجز المطلّ على شارع الميناء. حضرتني أفكار غريبة: ما الذي سيحدث لو أنني قفزتُ من فوقه؟ يزيد الارتفاع عن عشرين متراً، وعند القاع يمتد شارع الميناء الغاص بالشاحنات موازياً للبحر. ماذا سيكون رد فعل أسعد إذا سمع بموتي؟ وهو الذي برغم كل المجازر التي تقع ضد المخيمات، يظل محتفظاً بمزاجه الرائق، وبعاداته الصغيرة الطفولية.. كم شعرت بكراهية له.

قرعتُ الباب ظهراً. فتح "عائد" الباب. وفي حجرة  
الضيوف، كان أمامه صحنان صغيران: زيت وزعتر، ولبن.  
عرض عليّ مشاركته الفطور. أخبرني أن اسعد قد سافر قبل  
ساعة واحدة متوجهاً صوب الشرق، ليقضي العطلة هنالك...

وسمعت أنه رجع من السفر. كم كانت العطلة ثقيلة عليّ. بقيت أحسب بملل شديد مرور أيامها. ما أن عدنا إلى الجامعة حتى ظلت عيناى تدوران في كل الاتجاهات بحثاً عنه. وعندما تمر مجموعة من الطلبة يترأى لي أحدهم شبيهاً بأسعد فيخفق قلبي بعنف، وينحبس الهواء في ثنياى صدري. أصبح اسمه يتردد على لساني حينما أتحدث مع أيّ رجل.

حل مارس، ومعه تنتظر كل الكائنات، حلول الربيع. شيء يتململ في أعماق الأرض، بين جذوع الشجر، وبين الأعشاش، وفي قلبي كانت الأمواج تتدافع صوب مدارات لا منافذ لها. انتظرتُ يوماً، يومين ثلاثة، أربعة... أين هو يا إلهي؟ كان ذلك اليوم الذي فقدت فيه مقاومتي كلها، عاصفاً، وبارداً، تسمع خلال ساعات نهاره صفير الريح، وهي تعبر فوق "السانية" قادمة من البحر، تتمايل الأشجار في ساحة الجامعة بشدة، ترتعش النوافذ والأبواب.

حينما انتهت الدراسة الساعة الخامسة، وجدت نفسي كمن لا يعرف أين هو، وما عليه أن يفعل في الساحة.. بقيت شاردة الذهن، رغم تكاثف الغيوم، وانبثاق البرق، وانفجار الرعد، وحولي مضى الطلبة إلى الخارج، بخطى واسعة، للحاق بحافلات الجامعة التي تذهب إلى مركز المدينة، ولم أنتبه إلى نفسي إلا بعد هطول المطر. بدأ خفيفاً، ثم راحت قطراته تتهاطل بغزارة، حبّات كبيرة، ثقيلة. أخذتُ حافلة كانت موشكة

في الانطلاق. وفي الطريق، ظلت عيناى تتابعان خطوط الماء التي يرسمها المطر على النافذة الأمامية الواسعة، فتظلّ تلاحقها ماسحتا السيارة الطويلتان كذراعى أخطبوط. وحينما تركتُ الحافلة، كان المطر غزيراً، غزيراً جداً.

انحدرت في الطريق المؤدى إلى "ساحة الأسلحة". استدرتُ جنب البلدية مروراً بأسديها البرونزيين الجاثمين على طرفي بوابتها الكبيرة. مررتُ على مكتب الخطوط الجوية، ثم يميناُ انحرفتُ. أمامي في الطرف الآخر من الشارع، عدد من الناس، واقفين تحت أشجار البَقَس، بانتظار قدوم التاكسيات. ومع بدء شارع "الأمير عبدالقادر" يعود الطريق إلى الصعود ثانية. قادتني، دون إرادتي، قدماى، لكأني واقعة تحت سطوة منوم مغناطيسي، وما يظهر لي ليس سوى حلم، حلم طويل.

ظل المطر يتساقط بدأب، مخترقاً ياقة قميصي، متسرباً إلى جسدي. وشعري الطويل راح الماء يتهاطل من ذواباته، والوجوه تنظر إليّ باندهاش، أسمع كلمات ساخرة من مجموعة شباب متجهين صوب مقهى "السُنْثرا".

هأنذا أخيراً، أدخل العمارة، يلْقني ظلامها الدامس، أتقدمُ خطوات متعثرة، أمسك درابزون السلم، قدماى تعرفان الطريق، طابق، طابقان... لكأن المسافة لا نهاية لها، ولكأني لم أصل إلى ذلك البيت منذ أعوام عديدة. هأنذا، أخيراً، أمام الباب بمصراعيه، تخترق رائحة القهوة التركية فجواته، وتنتثر كلمات "ريتا" في الهواء، يردها صوت مارسيل خليفة. أدقُ الجرس أم أراجع؟ ما الذي سأقوله بعد غياب أكثر من شهرين، وأنا غارقة في المياه؟

انفتح مصراع الباب الأيسر ببطء، ومن خلال نثار الضوء المتسرب من الداخل إلى الفجوة المعتمة التي كنت غارقة فيها، رأيته متوهجاً بالضياء. لمحت أن شعره قد قُصَّ قصيراً جداً، وهذا ما يمنحه طابعاً جدياً، لكن بالمقابل كانت ملابسه العادية تثير إحساساً بالألفة: بنطلون جينز، وقميص أبيض مرفوعة كمّاه إلى ما فوق العضد. لم نتكلم، لكنّه لمح ارتعاشي تحت وطأة الملابس المبللة. توقعتُ أن يضمّني إلى صدره. وكنتُ على وشك الاندفاع في بكاء لا نهاية له بين أحضانه... قال أسعد: "المطر غزير، اليوم، بشكل عجيب". ثم تقدّم أمامي، بخطوات مترددة، "أنا متأسف لعدم وجود ملابس نسائية في البيت". قال ذلك متلعثماً، كأنه قد ضُبط بفعل مخجل. قادني إلى حجرة النوم التي كنا نادراً ما نجلس فيها. "سأشعل المدفأة الآن..." قال ذلك مرتبكاً، حائراً، بما يجب القيام به، يقدم خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء. جلب لي منشفة كبيرة، ثم ترك الحجرة.

\* \* \*

ارتديتُ ملابسني بعد أن جفّت بوهج نار المدفأة الأرجوانية. مشطت شعري، مرّرتُ أحمر الشفاه فوق شفّتي. خرجت من الحجرة التي تفضي إلى حجرة الضيوف المطفاً ضوءها. كانت الشقة غارقة في الصمت، ومن أسفل الشارع تتصاعد أصوات السيارات بين لحظة وأخرى.. وهناك، في المطبخ الواسع، رأيته جالساً، يتصفح مجلة دون تركيز، وأمامه فنجان قهوة فارغ.

حلّ الصمت بيننا فترة بدت طويلة جداً. كأن هناك جبلاً

جليدياً فاصلاً بيننا، برغم ما كان يغلي في أعماقي. حلمت أنه سيتحرك، قليلاً، دون كلمات، ليضع يده على كتفي. كم سيكون ذلك كافياً للاندفاع نحوه، لمنحه أراضي مسحورة لم تطأها عيناه من قبل، لتعويضه عن الآلام التي عاناها، عن المراهقة التي لم يعشها، عن حنان العائلة التي حُرم منها مبكراً. لمسة واحدة كانت تكفي لفتح أبواب الفردوس كلها له. وكنت غارقة في قمة اليأس. فسرت صمته بروداً، وابتعاده عن حجرة النوم حينما كنت فيها تجنباً لي. ثم جاء صوته مرتعشاً، ضعيفاً: "مضى وقت طويل لم نلتق به". كانت كلماته تياراً كهربائياً يسري في جسدي، فيشلني عن فعل أي شيء: عجز عن التكلم، عجز عن التملل، عجز عن التنفس. "لقد كانت أقصى فترة في حياتي"، أضاف هامساً. وبدلاً من مجابته، التزمت بالصمت، منتظرة أن يمدّ لي يده ليخرجني من تلك الفوضى التي غمرتني كلياً. "كنت أفكر في كتابة رسالة إليك"، قال ذلك، فشعرت بانقباض. هل هي دعوة لعدم اللقاء به ثانية؟ أردت أن أسأله عن السبب، لكن الكلمات ضاعت مرة أخرى: شلل كامل أصاب لساني، ورأسي تتقاذف داخله كوة من النمل.. ثم عاد صوته، خافتاً، نحاسياً: "ربّما تستغربين ذلك، فنحن تربطنا صداقة قديمة، لا تحتاج إلى طريقة أخرى للتواصل كالمراسلة". أضاف بعد فترة طويلة من الصمت: "أعلم أن حديثي هذا قد يزعجك. لكن أتمنى أن نظل أصدقاء". كان يتجنب النظر إليّ إثناء حديثه. "قرأتُ قبل أيام عن فيلسوف يعرف الحب بأنه وعي وحدتي مع الآخر، فما رأيك بذلك؟" ولا أتذكر ما قلتُ، كل ما أتذكره أن ذلك السؤال جاء كدلو ماء مثلج منسكب فوق قطعة حديد ملتهبة، أخرجت توأ من فرن

الحدّاد. "اكتشفت صحة هذا التعريف من خلال حالتي في الأشهر الأربعة الأخيرة. هل تعرفين في أيّ يوم بدأت هذه الحالة؟" كان شحوباً خفيفاً قد علا وجهه، ولكأن هذا المحارب الذي اعتاد أن يخترق عالم الموت، هابطاً إلى قاعه، دون أن يهتزّ له قلبه، يواجه الآن شيئاً أعتى من الموت. "في سفرتي الأخيرة، كنتِ معي أينما أذهب، وقد فقدتُ شهيتي للطعام تماماً".

ثم مضى يشرح حالته، كيف بدأت عواطفه تنمو نحوي، لماذا، ما الذي أعجبه بي.. تفسيرات وتفسيرات لكل التفاصيل في علاقتنا. كيف أصبحتُ دون إرادته جزءاً من كيانه.. كان يتحدث عن شخص، آخر، بدا لي رائعاً، مثالياً، منتمياً إلى عالم آخر علوي، بعيد عن عالم الحياة اليومية، بل لقد شعرتُ بغيره من تلك المرأة التي خلقها أسعد في ذهنه، بخوف منها، بضعف أمامها.

ظل أسعد يتحدث دون توقف، مقلّلاً من نفسه، مضجّماً من حبيبته، متولهاً بها. قرأ أبياتاً من شعر نيرودا وناظم حكمت، كان يحفظها عن ظهر قلب. أوضح كم أن الحب ضروري للحياة مثلما الطعام والهواء، كيف أن الإنسان يتطور من خلال الحب، كيف يزيد ارتباطه بالآخرين، وكيف يعشق كل ما حوله... ومع كل هذا الحديث الطريف، الشفاف، المجنّح، كانت النار تتضاءل في الداخل، وصورة أسعد تتضاءل في مخيلتي.. لربما لو أنه صمت قليلاً، لبقى شيء من الجمر الموشك على الانطفاء حياً، فتسترجع النار حياتها. لكنه، ولأول مرة، خلق في نفسي إحساساً بالشفقة عليه، بالضجر منه، بالانفصال عنه...

ما أن أكمل حديثه، الذي لم أسمع منه إلا القليل، حتى وجدت نفسي كمن يستيقظ من جديد، متحرراً من مفعول سائل سحري سبق له أن شربه.

كان حديث أسعد شاعرياً، لكنه اختار الوقت غير المناسب له. كان ممتعاً لو أنه انتظر حتى نتبادل القُبل. كان توقيتاً خاطئاً، وكنتُ حمقاء آنذاك. كنت مملوءة أوهاماً فبدلاً من أن يكون أسعد الجلاد الذي صنعتُه في مخيلتي، والذي عليّ أن أستعطفه للتقليل من ضرباته، رأيت نفسي في موقع الجلاد، وأسعد في موقع الضحية... هذا التبادل في المواقع جاء مفاجئاً، عنيفاً، غير قابل للتصديق. وها هو يسألني: "ما رأيك؟"

بعد فترة صمت، قلت له ببرود وأدب جم: "لنبق أصدقاء فقط..." وقبل مغادرتي البيت، مددتُ له يدي بطريقة رسمية، وحينما خرجتُ من باب العمارة، استقبلتني السماء الصافية، وأضواء الطريق الصفراء. لم تكن العاصفة قد تركت أي شيء وراءها عدا الشوارع المغسولة بمطرها، وعطر النوار المتساقط من الأشجار... وهكذا هو مارس، المتقلب، اللعوب. وقفتُ قليلاً جنب المقهى، أغلقتُ أزرار سترتي، ثم مضيت إلى بيت أخي بخطى واسعة...

لندن 1988



## حانة القنطور الذهبي



حينما فتحتُ باب المصعد الكهربائي، قابلني رجل قصير،  
متين البنية، لم تظهر العتمة منه سوى شرر العينين الصقيرتين  
المصوبتين نحوي. ابتسما له، فلم تتلملح عضلات وجهه. وظل  
واقفاً في مكانه، قاطعاً الطريق عليّ. انسللت بعسر عن يمينه،  
لمست منكبه، فانبعثت قشعريرة في جسدي، وازدادت ضربات  
قلبي اندفاعاً. استحوذت عليّ أمنية واحدة: أن أخرج من بوابة  
العمارة التي يفصلني عنها رواق قصير. جاءني صوت غليظ،  
مكهرب: "اسمع". كان ممكناً تجنب الالتفات إليه، والمضي  
سريعاً، كأن ذلك النداء لرجل آخر غيري، لكن شللاً وفضولاً  
أوقفاني. سألته بارتباك واضح: "تتكلم معي؟" أجابني ساخراً:  
"ومن غيرك حاضر؟"

"ماذا تريد؟"

"تعال نتفاهم هنا."

مضيت إليه مسلوب الإرادة، خائر القوى، تتسارع لكل  
خطوة نبضات قلبي. بدت المسافة بيننا كأن لانهاية لها. وقفتُ  
قبالته، يفصلنا نصف متر، أظهر رذاذ الضوء المنبعث من  
مقصورة المصعد ملامح وجهه، شعراً مجعداً، فاحماً، قصيراً،  
وشفتين مزمومتين نائتتين. أثارت عيناه ارتبائي، إذ بقدر ما  
بدتا فيه صغيرتين، كانتا عنيفتين، لزقتين، باعثنين على  
الغثيان. شددتُ ذراعيّ على صدري، لإظهار عدم مبالاتي،  
به، للبقاء متماسكاً أمامه.

- أنت تسكن في الطابق الخامس؟

- نعم.

- هناك امرأة تزورك من وقت لآخر.

- لكن هي.. تأتي.. مع زوجها.

- لا تكذب.

- اقسم لك أن...

انفلتت تلك الجملة دون وعي مني. لامست سبابة يده اليسرى أنفي، وظلت قبضة يده اليمنى في جيبه، لتضاعف خوفي منه. "أنت تسكن بين عوائل مسلمة". دخل متأثراً المصعد، حدّق برهة في عيني، "رُدْ بالك عملها خطرة أخرى". صفق الباب في وجهي، فانثال العرق غزيراً، غزيراً على جبهتي.

خرجت من البناية في حالة من قُطعت ذراعه قبل ثوان، ففقد الإحساس بالألم تحت أثر الصدمة. لاح الناس لي أشباحاً تتقاذف بين رصيفي الشارع، تتقاطع معي، تتجاوزني. طفح العرق، رغم البرد، فوق جسدي، تناقصت مع كل خطوة نبضاتي لكن انقباضاً بدأ يضغط على صدري رويداً رويداً، يرافقه تصاعد شعور جارف بالانسحاق والخيبة والمرارة. انتابني احتقار عميق لنفسي، راح ينسكب في قصباتي قطرة قطرة، فيشدّ الخناق عليّ. استرجعت ذاكرتي الحادثة مراراً، مراراً، كابوس يقبض عليّ بين فكيه، كلما أفلت منه، يجرني إلى أسنانه، اندفع ذلك الرقيب الساكن في شراييني بالضحك فشاركه الآخرون الصخب، بعضهم صديق، بعضهم خصم، بعضهم عابر سبيل،

أغلقت ضحكاتهم سمعي. ها هي سيارة مقبلة نحوي بأقصى سرعتها. تبرق شرارة في ذهني، خطوة أخرى ويتوقف النزيف إلى الأبد.

سمعت عالياً صرير العجلات المُحتكة بإسفلت الشارع، ضرب جسم صلب، بارد أسفل فخذي برفق، وملتُ دون إرادتي إلى السيارة، لالتكأ بذراعيّ على غطاء محركها. رفعتُ عينيّ المبلتين بالعرق والدمع إلى السائق الذي علا الشحوب وجهه. صرختُ به بكل ما بقي من قوى في عروقي: "أنت مجنون؟" هبط من السيارة مرتعشاً، مرتبكاً، مردداً عبارات اعتذار مفككة. التّم حولنا جمع من المارة، راح يشتم السائق حين رأى تخاذله، فولّد في نفسي خجلاً منه، وتعاطفاً معه، ومقتاً لأولئك المتطفلين، منحتني تلك الحادثة قدراً من العزاء والثقة في النفس، بعد فقدانها دفعة واحدة عند باب المصعد الكهربائي.

دخلتُ بار "القنطور الذهبي". عثرتُ على كرسي قرب طاولة متخلّق حولها ثلاثة رجال، يتبادلون الحديث دون أن يسمع أي منهم ما يقوله الآخر، يتحدثون أحياناً في وقت واحد أو يصمتون جميعاً، يعود أحدهم للصراخ ضارباً الطاولة بقبضة يده، معترضاً على ما يقوله الآخر، فيثور صاحبه عليه غاضباً، ثم يضحكون بعنف، تتحرك أذرعهـم المتوترة بشتى الاتجاهات لوصف مشاعرهم. كان الحديث يدور حول كرة القدم، ونظرة كل منهم على آخر مباراة خاضها المنتخب الوطني، ملاحظاتهم على كل لاعب متضمنة مديحاً أو شتائم، فتثير جدلاً وخلافاً بينهم.

جاءني النادل كعادته كل يوم بزجاجتي بيّرة، "هذه من  
الثلاجة يا شيخ". طلبتُ منه ست زجاجات أخرى. كانت  
الطاولَة ملاءى بقناني البيّرة، فجعلته عاجزاً عن وضع كل ما  
طلبته عليها، ودفعته للتأفّف مراراً. فرغت طاولَة خلفي، انتقلتُ  
إليها متبوعاً بخطواته. "أريد أربعاً أخرى".

قال النادل متضامناً معي: "هذه من آخر صندوق عندنا".

شربت زجاجتين دون انقطاع. تسرب خدر رقيق إلى  
رأسي. تلاشى ارتجاج خلايا جسدي تدريجياً. مسني السرور  
وأنا أتابع ماكنة الفوضى حولي في شغف شديد، أتطلع إلى  
جدران البار الزرقاء العارية إلّا من صور بعض لاعبي كرة  
القدم الملصقة عليها، وأرضيته المبعثرة فوقها سدّادات القناني  
وأعقاب السجائر، إلى مصباحيه العاريين الناشرين ضياء  
شاحباً على وجوه الزبائن المتشنجة. اكتشفتُ أن ما يشدني إليه  
بشاعته العارية، النقية، التي تمنح إحساساً بعبث الأشياء ولا  
معقوليتها، فتجعلني أعيش لحظاتي فيه حلماء، غريباً، طويلاً،  
رتيباً.

توقف تدفق الكتل البشرية إلى البار بعد نفاذ البيّرة فيه،  
فأتاح لي فرصة البقاء وحيداً جنب طاولتي وإعادة النظر مليّاً  
بمشكلتي. حضرني أول جواب: لِمَ لا أدعوه ليشرب معي،  
فأحدثه بلطف سعيّاً لإزالة سوء الفهم بيننا؟ لكن قد تجعله  
دعوتي أكثر صلفاً وغروراً، فيبدأ في ابتزازي أكثر فأكثر.

دخل صبي البار حاملاً صينية ملاءى باللوز. اشتريت ثلاث  
ملاعق منه، ورحت أقرض الحبات المملحة بطريقة آليّة، حبة  
واحدة وراء كل جرعة شراب. فكرت في حل آخر: أن أذهب

إلى الشرطة فاخبرهم بما جرى لي معه.. لكن ما الذي سأقوله لهم؟ مجهول تحدث معي فأرعبني. وإذا كان خصمي شرطياً؟

اخترق رجل ثمل البار فطلب من النادل الواقف خلف الكاونتر شرباً. وحينما أجابه: "ما كانش"، استشاط غضباً، بصق على الأرض، دمدم بعبارات متقطعة، شاتماً البار ومن فيه، ثم مضى دون أن يترك على وجه النادل أثراً ما، دهشة، ضحكة، أو ازدراء. جاءتني فكرة أخرى: لِمَ لا أعترضه واحذره من التدخل في حياتي؟ فإن استعمل يديه استعمل يدي ضده، و.. ومن سيمنعه من دعوة أصدقائه لاعتراضي عند باب العمارة كل يوم؟

قلبتُ يدي اليمنى على الطاولة، فراحت ترتعش كسمكة في شبكة. تطلعتُ إليها ملياً. ها هي يد رشيدة ساكنة فوقها، تختلط نبضاتي بنبضاتها، تمسّد أصابعي ظاهر كفها. تملكني فرح عميق منذ مصارحتي إياها، استعملت لغة رموز شفافة للتعبير عما في نفسي، فالتقطت بذكائها الفطري رسالتي. عبّرتُ بكلمات عذبة عن مبادلاتي الشعور نفسه.

عثرت على أفضل حل لمشكلتي. شربتُ آخر زجاجة في تأنٍ. نظرتُ عبر الواجهة الزجاجية إلى الشارع، فاجأني انسلال النهار عنه. اشتعلت مصابيح الصفراء، فؤشحت وجوه عابريه القلائل بالشحوب والذعر، ودفعتهم للمضي سريعاً إلى بيوتهم.

\* \* \*

اختفى ذلك الغريب عن ناظري أسابيع عديدة ثم ظهر ذات

يوم فجأة، في الشارع الرئيسي فتظاهرت بعدم معرفتي إيّاه حين قاطعني وجهاً لوجه، لكنني أحسست أنه قد توقف برهة خلفي، ملتفتاً نحوِي، مستغرباً ومتذمراً من سلوكي إزاءه. لم أغبر من حياتي شيئاً. بقيتُ أستقبل أصدقائي كل مساء خميس تقريباً، ولم أخبر أيّاً منهم بتلك الحادثة، لكنّ الأرق أمسى ملازماً لي كل ليلة عند ذهابي على الفراش. إذ يحضر خصمي قبالي بأوضاع مختلفة، فأخوض معه نقاشات مطوّلة، تعتمد على سؤال آخر يزيد من تقييده. كنتُ أدفعه، في أغلب الأحيان، إلى أوضاع محرّجة تجعله ينسحب من ساحة المعركة منكسراً، تلاحقه ضحكات الآخرين وسخريتهم.

رأيتَه، ثانية، يفتاد طفلته، فبهتتُ صورته في ذهني. التقيت به، مرة أخرى عند باب المصعد الكهربائي، حاملاً سلّة خضار، يتحدث مع رجل عجوز بدمثة مذهلة، فتضاءل حجمه، أكثر فأكثر، في نفسي. عندما خرج الناس من المصعد دخل عدوّي مع العجوز فيه، ثم أمسك الباب قليلاً منتظراً صعودي.

عدتُ يوماً في ساعة متأخرة إلى البيت. حين أغلقتُ باب العمارة، سمعتُ أنيناً، ضعيفاً، متقطعاً، يرجوني فتح الباب له. التقيت بخصمي في أسوأ حال: كان ثملاً أشد الثمالة، بلحية بارزة وعينين زائغتين، وملابس رثّة. قال، متلعثماً، دون أن ينظر إليّ: "يرحم.. والديك". وكأنه بتلك النبرة المتباكية، يعتذر لي عما بدر منه ضدي. جرّج خطاه في عسر، مترنحاً يساراً ويميناً. أدّرت قفل الباب بالمفتاح، ثم مضيت مسرعاً خلفه صوب المصعد الكهربائي، لإلقاء نظرة شامتة، أخيرة عليه،

ففاجأني اختفاؤه. نمتُ في تلك الليلة نوماً عميقاً.. شاهدته مراراً، لكنني تجاهلته كالعادة، معتبراً أن ما بيننا قد طُوي وإلى الأبد. وكم كنت على صواب في قناعتي تلك!

وصلت إلى المصعد ذات مساء قادماً من "القنطور الذهبي". وقف رجل في الأربعين من عمره، جنب الباب المغلق، حيث توهجت إلى يساره الدائرة الصغيرة على لوحة الأزرار بالضوء الأحمر. حبيته بصوت خافت، ثم مضيت أراقب الدائرة الحمراء. كان هنالك في الركن المقابل للمصعد رجلان يثرثران عالياً، لكن حال حضوري انقطع صوت أحدهما فحدست أنه خصمي. التفتُ إلى الرجل الواقف قربي، ابتسمتُ له معبراً عن ضجري من الانتظار، بادلني نظرة متضامنة. قلت له: "الشتاء بارد هذه السنة". أجابني: "هذا أبرد وأطول شتاء رأيته في حياتي". التفتُ قليلاً إلى يميني، لمحتُ آنذاك الشرر يتطاير مرة أخرى من ركن مربع الانتظار صوبي. أعدتُ نظري إلى القرص الأحمر الذي ما فتأ يبعث وميضاً متعاقباً، معلناً عن قرب وصول المصعد. انتابني ندم لعدم بقائي ربع ساعة أخرى في البار.

قبل أن أغلق باب المصعد ورائي، انطلق دويّ، عنيف، هادر: "اسمع". اخترق خصمي المقصورة الصغيرة. وقف قبالي، يكاد يمس أحدنا الآخر. رفع عينيه المحتقتتين إليّ: "واش عملتُ لكُ باش تحتقرني هكذا؟" قبل أن أنطق بعبارة تخفف من تأزمه، وتسمح لي بإزالة سوء الفهم عن ذهنه، صرخ مهتاجاً: "أنت إنسان خامج<sup>(1)</sup>..." اختض جسده، ارتعش

1 خامج: رديء ( في اللهجة الجزائرية).

فكه الأيسر، وشاربه الأيسر، فارتعشت معهما كفي اليمنى  
الموضوعة في جيبي. لمحت على عيني مرافقي تعاطفاً معي،  
وازدراء لخصمي، وتحفيزاً لي بفعل مناسب يزيل عنه مشاعر  
السخط من سلوك الآخر.

اندفعت يدي اليمنى بالارتعاش أكثر فأكثر، فاضطربت إلى  
إخراجها من جيبي. تصادمت نظراتنا وأنفاسنا دقائق قليلة بدت  
لي دهنًا.. تكاتف كل ما حولي ليدفعني إلى صفعه بعد إغلاقه  
الطريق عليّ للخروج من المصعد: يدي اليمنى المرتعشة، فكه  
الأيسر المرتعش، رائحة العرق النفاذة المنبعثة منه، عيناه  
المتهيجتان، الخائفتان، الزمن اللزج الثقيل، نظرات جاري  
المنبعثة منه، عيناه المتهيجتان، الخائفتان، الزمن اللزج الثقيل،  
نظرات جاري المشجعة، المحفزة، دفعة واحدة، ثم اندلق منه  
إلى عروقي، فبعث الوهن والارتعاش في جسدي. تسرب إلى  
جسد خصمي، عاد إلى جسدي أعنف من قبل، ثم ارتدّ ثانية  
إليه.. وهكذا راح كلانا يهتز تحت ضوء المصعد الشاحب  
برقصة طقسية، جنونية على إيقاع قلبينا الواجفين معاً. ارتفع  
صوت غريب عني، ضعيف، خائر ومتقطع: "شكراً على..."

\* \* \*

استيقظت صباح تلك الجمعة على ضربات متلاحقة فوق  
السقف، حيث يقضي الأطفال نهارهم في حجرة صغيرة، تقع  
أعلى حجرتي، يبتكرون خلاله، ودون توقف، أنواعاً شتى من  
ضجيج، مدوّ، بغیض، باعث على الغضب والاهتياج، لكنها لم  
تعد تترك أثراً في نفسي. رفعت الستارة قليلاً. طالعني غيوم  
رمادية، منقلبة بعضها على بعض، قادمة من البحر، مندفة  
نحو الصحراء، يتبعها عويل الرياح الدؤوب.

اضطجعتُ يميناً. لاحت لي الأباجرة الحمراء كظل كرة كبيرة، تتأرجح تحت وطأة ارتجاج السقف، وعلى أرضية الحجرة تناثرت أشياء كثيرة لم تظهرها العتمة سوى كتل مختلفة في دكنتها: زجاجات نبيذ فارغة، سدّادات فلينية، علب سجائر فارغة، أحذية، ملابس، كتب، جوارب، أوراق ممزقة، أعقاب سجائر، كؤوس...

فقدتُ منذ شهر صلتني بمن حولي: أنهيتُ علاقتي برشيده، انقطعتُ عن فتح الباب لمن يدق جرسه، توقفتُ عن إعداد الطعام في البيت بعد انضمام شهيتي للأكل. كنتُ أجد نفسي فجأة (وربما تحت تأثير غريزة البقاء) مندفعاً إلى الشارع الرئيسي، فازدرد فيه قطع اللحم الصغيرة، بشرود كلي، محاطاً بوجوه شاحبة وعيون مُحملقة في الفراغ، تتراءى لي جزءاً من عالم وهمي لا نهاية له. التقى بجاري من وقت إلى آخر، أبادر إلى تحيته فيجيبني باحتقار، أو يكتفي بهزة من رأسه، أو يتجاهلني، وأحياناً... لكن يدي اليمنى ظلت ترتعش كلما صادفته، قرب المصعد، عند باب البناية، أو في الشارع الرئيسي.

تحول الضجيج فوق رأسي إلى صرير حاد ناجم عن احتكاك جسم ثقيل، متحرك، بأرضية الحجرة العارية، مختلطاً بزغاريد الأعراس وزمامير السيارات القادمة من النافذة. اضطجعتُ جانباً، ضاغطاً صدغي الأيمن على المخدة. وصلتني أصوات مئات الساكنين في البناية، ممزوجة مع بعضها، كأنها دمدمة سائل يغلي في قدر عملاقة تحتي، لكنني رغم حصار الأصوات المدمرة تلك غفوت ثانية.

ظهر البحر أمامي في أحسن أحواله، رائقاً لونه اللازوردي،  
متمادية أمواجه صعوداً ونزولاً على سطحه باتساق وانسياب  
كاملين، وأنا واقف على حافة منحدر ينتهي إلى صخور يغطيها  
البحر تارة بحاشيته البيضاء ويعريها تارة أخرى. فجأة، لمحت  
رجلاً وسطه يصرخ عالياً، ظننتُ أنه موشك على الغرق،  
فكدت أقذف بنفسي صوبه، لكن نظرة أخرى إليه أقنعتني  
بمعرفته للسباحة. انتبهت آنذاك إلى البخار المتصاعد من  
البحر، إلى فقاعات الماء المنفجرة من شدة الغليان فوق سطحه.  
حينما أمعنتُ النظر في وجهه، اكتشفت عبر تقاسيم الألم عليه  
تشابهاً كبيراً بيننا. فزعتُ من نومي. كانت يدي اليمنى ترتعش  
فوق صدري.

تسلل شعاع من خلال شق رفيع بين ستارتي النافذة،  
الغامقتين الزرققة، فتطايرت فوقه ذرات الغبار المتكدسة على  
بلاط الحجرة. لمحتُ نسيج عنكبوت في أعلى زاوية الحجرة  
متدلّية بخيوطه ذاببتان ميتين، واتضحت معالم نثار الأجسام.  
راودني الشك في حقيقة ما أراه، إذ ما عاد هنالك فاصل بين  
حالتي النوم واليقظة: عند الصحو، تتراءى الأشياء جزءاً من  
حلم، لا تنعكس فوق عيني سوى صور منفصلة عن بعضها،  
دون أن تترك وراءها أثراً في النفس، وحينما يحل الكرى  
عليّ، فهو يهبط فجأة، وتظل صور الواقع مرافقة لي.

ارتعدت العمارة بأذان صلاة الظهر المضخم فوق مكبرات  
الصوت، قادماً من مسجد مقام في الطابق الأرضي، لكن  
الصوت انقطع بعد "حي على الفلاح.. "ظهر لي جاري جالساً  
فوق عربة، يجرها حصان أدهم، تتهادى في شارع مغطى

بالإسفلت، تقف على جانبيه نساء متشحات بالسواد. كان يسوط حصانه، بانتظام، بين برهة وأخرى، لكن الحصان ظل محافظاً على سرعته، وظل جاري محافظاً على هدوئه، لكنهما متفقان على مواصلة تلك اللعبة، حينما استيقظت من نومي، كانت يدي اليمنى ترتعش بشدة.

لم أستطع تقدير الوقت الذي استغرقتة إغفائي الأخيرة، لكن هدوءاً شاملاً حل في المدينة، تقطعه بين الفينة والأخرى نداءات الخطاطيف بعضها لبعض. كم أحببت تلك الطيور الغريبة، الفرحة، التي تأتي إلى وهران مع حلول الربيع، لتبقى فيها حتى قدوم الخريف، وعند كل غروب تقيم آلاف منها احتفالاً صاخباً فوق المدينة قريباً من البحر، فتكسر فيها، ولوقت قصير، رتابة الحياة وجفافها. أزحت ستارة النافذة. استقبلت عيناى مستطيلاً أزرق غامقاً، وسط العمارتين المتقابلتين، تمرق تحته بقع بنية داكنة في كل الاتجاهات، يرافقها صغير، حاد، قصير، لجوج. أحسست كأن دهرأ قد مضى عليّ منذ بداية الصباح، كأني أسكن مدينة أخرى، في قارة أخرى، تحت سماء أخرى.

نهضت من سريري. مضيت إلى الحمام. رميت قليلاً من الماء على وجهي، فأنعشتني برودته. خرجت من البناية. أخذت زقاقاً فرعياً مجاوراً لها، يهبط دُرْجاً صوب البحر، مخترقاً شارع "العربي بن مهيدي"، ثم شارع "الخميسي"، ليفضي إلى كورنيش البحر. مررت بصبية يلعبون "كرة القدم"، بكرة ملفوفة من خيوط المطاط الأسود. انتشر عند مفترقات الأزقة باعة السلع المهرّبة، ومتسكعون، يقفون دون حراك، مشدودة

أذرعهم فوق صدورهم، وعلى جانبي الزقاق ، عُلقَت ملابس الغسيل في الشرفات.

عبرْتُ شارع الكورنيش نحو الرصيف المجاور للميناء. وقفتُ جوار الحاجز الحديدي المطل عليه. ترامت وسطه صناديق الشحن وعدة رافعات عملاقة. أقيم من وراء رصيف الميناء سد عازل يمنع اندفاع المياه إليه، وعلى مبعده عشرات الأمتار خلفه، سكنت أربع بواخر مشعشة فيها الأضواء. وهناك في الأفق، وفوق المياه، أوشك شريط قرمزي، غامق، على الانطفاء تحت سماء صافية، داكنة الزرقة، عُلق مصباح على كبدها: نجمة القطب. لم تمض سوى دقائق قليلة، حتى استقرت كف على كتفي، فبعثت قشعريرة في جسدي. التفتُ يميناً. التقيت بهاشم. صافحني بحرارة. عاتبني لانقطاعي عن زيارته فترة طويلة. لفقتُ عدة أسباب حالت دون ذلك، لكنه راح يهدمها واحدة بعد الأخرى. وحينما حل الصمت بيننا. قال لي: "يجب أن تأتي معي". اعتذرت عن مرافقته، لكنه ازداد إصراراً. اقتادني في سيارته دون أن يعطيني فرصة أخرى للإفلات منه، وعند باب شقته قال لي مشجعاً: "أم خليل عاملة دولمة عجيبة اليوم".

أدخلني إلى حجرة الاستقبال . فاجأتني أضواؤها القوية المنبعثة من سبعة مصابيح معلقة بثرى. أثارت انتباهي الجدران المغلفة بورق أبيض سميك، مطبوعة عليه ورود صغيرة. قال مفتخراً: "هذا الغلاف جلبته من إسبانيا. ما رأيك به؟"

كانت عدة تحفيات موضوعة وسط "البوفيه" المقابلة لي؛ ماموث خشبي أسود اللون وديناصور وثور مجنح. سألته

مشيراً إليها: "هذه من إسبانيا أيضاً؟" فضحك مستغرباً،  
"ذاكرتك صابرة ضعيفة..."

حضر طفلاه إلى الحجرة وجلسا قربي. اعتدت أن أقضي  
معظم وقتي معهما كلما جئت إلى بيت هاشم. أحياناً، وتحت  
إلحاحهما، ألق لهم حكايات قصيرة تنتهي بموعظة مملّة.  
"احكي لنا قصة البطتين والسلحفاة". قال أصغرهما، فصاح  
هاشم بهما أمراً: "عمّو تعبان اليوم، أنتم لازم تنامون الآن. أم  
خليل..."

بعد تناول العشاء واحتساء الشاي، جلست مع هاشم على  
كنبة واحدة، وجلست زوجته على الكنبّة الأخرى مستغرقة في  
الحياكة. سألتني عن عملي. أخبرته بانقطاعي عنه، لاعتزامي  
الرحيل إلى بلد آخر، فأثار الدهشة في نفسه. اندفع في حديث  
طويل معبراً عن استيائه من الناس في وهران، من خشونتهم  
وتهورهم، من شحة المواد الغذائية، من نقص قطع غيار  
السيارات. حدثني عن إلغاءات عقود عمل الأجانب في  
الجامعة، وكم هو قلق من فقدان وظيفته في العام المقبل. أسهب  
في الحديث عن سفرته إلى إسبانيا، عن رخص الحياة فيها، عن  
أنواع المشروبات والملابس والكهربائيات، عن لطف الناس  
وطرافتهم، عن المقاهي التي تظل مفتوحة حتى الصباح.  
اشتكى من وجود الصغيرين معهما في السفارة، إذ لولاهما  
لقضى هو وزوجته عطلة بدون منغصات. حدثني عن رخص  
سعر التلفزيون والفيديو اللذين اشتراهما من مليلية، كيف  
استطاع أن يخفيهما عن أعين رجال الجمارك عند الحدود  
ليفلت من دفع ضريبة ثقيلة عليهما. كانت زوجته تتابعه  
بإعجاب واضح. ولا أتذكر متى بدأت يدي اليمنى بالارتعاش.

أبدیتُ ملاحظة عابرة، لا علاقة لها بحديث هاشم: كم يختلف الناس في جنوب الجزائر عن سكان الشمال. لكنه أجابني منفعلًا قليلاً: "كلهم نفس الشيء". فأيدته زوجته بحماس كبير. اندفع متحدثاً عن عمله في الجامعة، عن مستوى الطلبة المتدني، وجهوده التي يبذلها معهم دون جدوى. انتقد الأساتذة الآخرين المتساهلين معهم، كيف يتغاضى بعضهم عن محاولات الغش داخل قاعات الامتحان. تحدث عن جرأته في مواجهة حالة التسيب. ذكرتُ له أن حالة الفوضى ناجمة عن حداثة الجامعة في الجزائر وحداثة تقاليدها لكنه رفع يده معترضاً، ومغتاظاً، فأيدته زوجته مرة أخرى، "البارحة رحْتُ أبْدَلُ سترهُ اشتريتها قبل يومين طلعت صغيرة عليّ، تدري صاحب المحلّ تقريباً أرادُ أن يضربني..."

استأذنت بالانصراف، لكنه ألح عليّ بالبقاء نصف ساعة أخرى، ودعا زوجته أن تعدّ لنا شايًا. كانت يدي اليمنى ترتعش دون توقف، وأنا أراقب ملامح وجه صديقي تتقلب مع تقلب موضوعات حديثه. لا أدري كيف تراءى لي وجود تشابه في ملامح الوجه بين جاري الذي قاطعني عند المصعد وهاشم. هل هما الشاربان أم الشعر المجعد أم الحدقتان؟ رغم أن عيني هاشم تخلوان من قسمات جاري القاسية. كانت الأضواء المنتشرة من ثريا الكريستال الجديدة تتفتت فوق عيني فتجعلني أشعر أن المسافة بيني وبينه تتباعد، وصوته يصلني واهناً كأنه قادم من خلف الجدار. انساب العرق غزيراً على جبھتي وعندما وضعت زوجته الشاي أمامنا على الطاولة، كانت يدي اليمنى تختضّ في حضني.

ما عدت أفقه شيئاً من حديثه المتواصل، سوى ضجيج ينتشر في فضاء الحجرة مخلفاً طنيناً في أذني، وما عاد وجهه

سوى وجه جاري. شعرت بعد أن ودّعتني زوجته، وغادرت الحجرة، بانقباض شديد، يتزايد لحظة بعد أخرى، كأن هنالك شخصاً آخر راح يتصرف وحده، يجلس جنبي، وكل ما كنت أحاول القيام به هو منعه من التصرف الطائش، إلا أن مقاومتي ما فتأت تضعف رويداً رويداً.. راحت يدي تقيس المسافة الفاصلة بيني وبين هاشم الذي ظل مندفعاً في حديثه، وعيناه مزروعتان في عيني بحثاً عن تأثير ما يقوله في نفسي.

كم تمنيت لو أنني لم أقبل دعوته، لو أنني لم أغادر حجرتي. غفوت لحظات قليلة. رأيت نفسي خلالها متشبهاً بحافة قمة شاهق، تقع عند قاعدته فوهة واسعة مظلمة. كنت أسعى بكل قوتي تجنب السقوط، بانتظار حدوث معجزة تنقذني من مأزقي. حينما استيقظت، رأيته مندفعاً في حديثه، واقترب جسمه أكثر إليّ. تسرب النوم إلى حواسي، فوجدت نفسي مرة أخرى متشبهاً بحافة الجبل، حيث تراخت عضلات يدي، وراحت أصابعي تتحلل عن نتوءات الصخرة المتعلق بها، واحداً بعد الآخر، ثم... هأنذا أنقذف إلى الهوة بسرعة لا نهائية، انفجر صوت عنيف جوارى، تفتتت الأضواء إلى شرارات متوهجة حولي. لم ألمح سوى راحة يد هاشم اليسرى ساكنة فوق خده، تلاها تصاعد صرخات حادة في الحجرة وبكاء أطفال، وتكسر كؤوس وصحون. بدت الغرفة غاصة بأشباح يتحدثون بلغة أخرى غريبة عن أذني. كنت محاصراً بضجيجهم، وكم شعرت بالتعب آنذاك ورغبة عارمة في النوم...

لندن 1986

## صدر للمؤلف

1. "العبور إلى الضفة الأخرى" (قصص)، عام 1992، عن دار الجندي، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 alfyaa.net"
2. "أحلام الفيديو" (قصص)، عام 1996، عن دار الجندي، دمشق - سوريا
3. "رمية زهر" (قصص)، عام 1999، عن دار المدى، دمشق - سوريا
4. "خيانة الوصايا" (ترجمة)، دراسات نقدية لميلان كونديرا، عام 2000، عن دار نينوى، دمشق - سوريا
5. "مفكرة بغداد: يوميات العودة إلى مسقط الرأس" (كتاب يوميات)، عام 2004، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان
6. "كوميديا الحب الإلهي" (رواية)، عام 2008، عن دار المدى، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 alfyaa.net"
7. "لعبة الأقنعة" (قصص)، عام 2008، عن دار دلمون الجديدة، دمشق - سوريا
8. "حين تغيرنا عتبات البيوت" (مقالات)، عام 2021، عن دار دلمون الجديدة، دمشق - سوريا
9. "جاذبية الصفر WEIGHTLESSNESS" (رواية)، عام 2023، عن دار دلمون الجديدة، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 alfyaa.net"